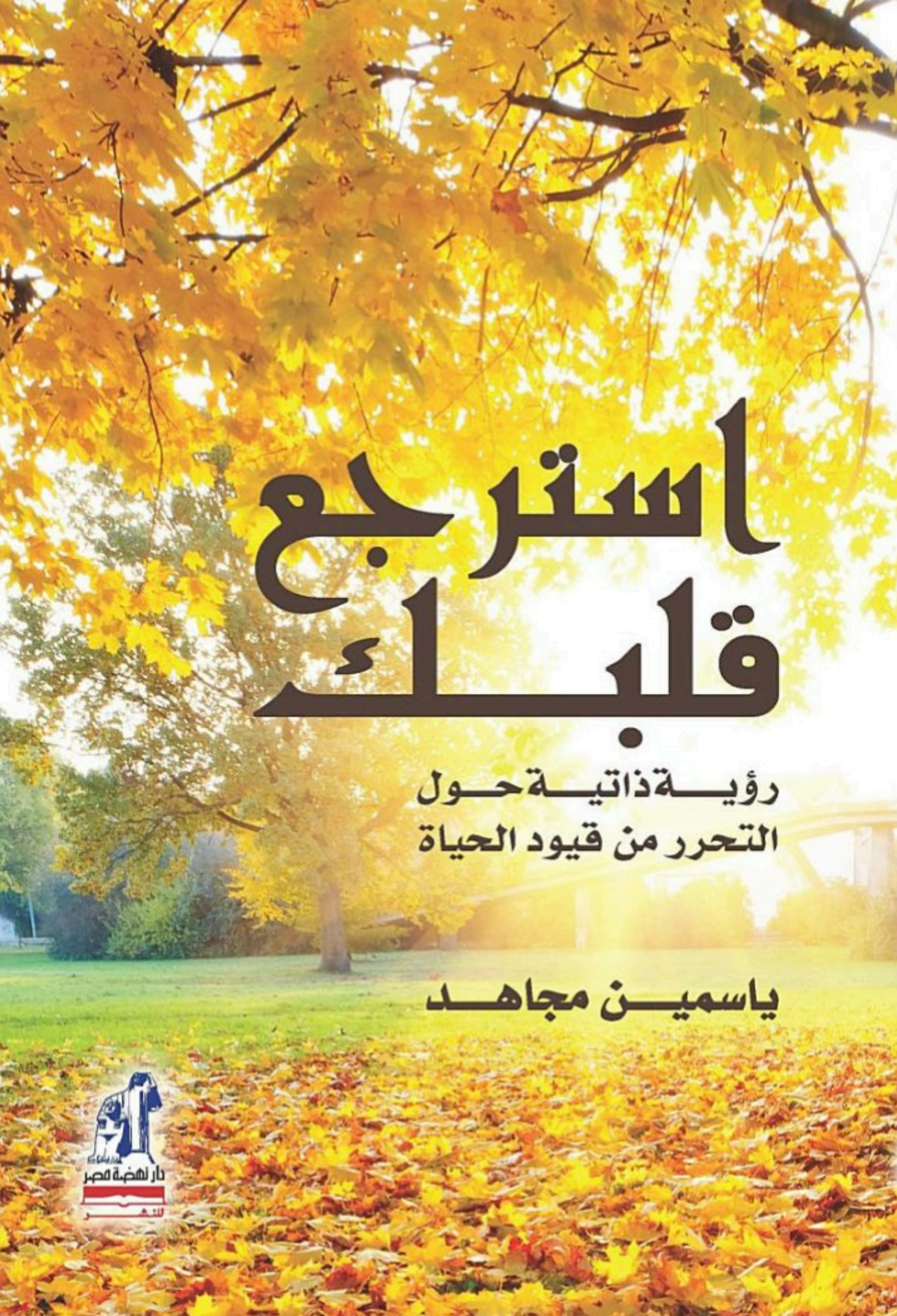


استرجع
قلبك
رؤية ذاتية حول
التحرر من قيود الحياة
ياسمين مجاهد
دار نهضة مصر
للنشر

استرجع قلبك

رؤية ذاتية حول التحرر من قيود الحياة

ياسمين مجاهد

ترجمة:

منار مصطفى

تدقيق:

سلسبيل الدعاس

تصميم:

عز الدين عثمان

إشراف عام:

داليا محمد إبراهيم

الرقم الدولي:1-5204-14-977-978

رقم الايداع: 21946 / 2014

الطبعة الخامسة: اغسطس 2017



تليفون: 33466434 - 33472864 02

فاكس: 3346576 02

خدمة العملاء: 16766

Website: www.nahdetmisr.com

E-mail: publishing@nahdetmiar.com

استرجع قلبك

رواية ذاتية حول التحرر من قيود الحياة

ياسمين مجاهد

ترجمة:

منار مصطفى

تدقيق:

سلسبيل الدعاس

تصميم:

عز الدين عثمان

إهداء

أهدي كتابي إلى من رعاني حتى قبل أن أخلق في رحم أمي.. أهديه لمن علمني وألهمني، وهداني خلال حياتي كلها. أهدي هذا الجهد المتواضع إلي الله سبحانه وتعالى، وأدعوه سبحانه وتعالى أن يقبل هذا العمل مني على الرغم من ضعفي وهواني، كما أهديه إلي أسرتي التي دعمتني طوال هذا الرحلة.

نبذة مختارة من تعليقات القراء وإطرائهم

منذ سنة قرر خطيبي أن يتخلَّى عني، كنت محطَّمة ومذهولة وحزينة وقلقة؛ وكل ما يمكن أن يخطر على بالك. ومع ذلك فإني أحمد تعالى، لأن الحالة التي كنت عليها هي التي قادتني للعثور على كتابك. لقد كانت السنة الماضية بالنسبة لي سنة في غاية الاضطراب العاطفي، وفي الوقت ذاته مرحلة تعلم ممتازة جعلت قلبي يتماثل للشفاء. تعلمت أن الله وحده يجب أن يكون في القلب، وما عدا ذلك هِبات مكانها الصحيح في اليد، حتى لو كانت حلالًا كتاباتك ساعدتني كثيرا لدرجة أنني لا أجد الكلمات المناسبة لوصف ذلك.

منذ ثلاثة أسابيع، توفي والدي رحمه الله فجأة ، تاركًا وراءه أسرة وأصدقاء مفجوعين وحزينين؛ لكن أول ما تبادر إلى ذهني هو: إنا لله وإنا إليه راجعون، لقد عاد والدي إلى موطنه إن شاء الله. بدلا من أن أحزن، وجدت نفسي ممتنة أن الله عز وجل اختاره ليكون أبًا لي، وسمح لي أن أكون معه طوال هذه المدة. بغض النظر عما آلت إليه الأمور، فإن الله عز وجل يختار دائما الأفضل لنا، ولهذا أيقنت بأن هذا كان أفضل وقت لرحيله.

أريد أن أشكركِ من أعماق قلبي، لأنني لو لم أقرأ وأتأمل كتاباتك،

لما اصبحتُ الشخص الذي أنا عليه اليوم، حيث تمكنت من التصرف باتزان عند فقدان أحد أقرب الناس إليّ في هذا العالم. لا أستطيع القول إن موضوعًا محددًا من كتاباتك هو الذي ألهمني؛ فقد كانت مجموعتك كلها كذلك. أدعو الله أن يجزيكِ خيرا كثيرا، ويلهمك وييسر لك مواصلة ما تفعلينه. بارك الله فيك وحمي من تحبين، أرجو منكِ الدُّعاء لوالديَّ.

(آلاء)

أريد أن أبلغك امتناني لتغيير حياتي كليًا، بارك الله فيك. عزيزتي؛ كنت أمر بفترة عصيبة في حياتي، مليئة بالظلمة والكآبة الخواء والسلبية. بعدها عثرت على مقالاتك. متنورة أنا الآن، الحمدلله شكرا لكِ، واصلي الكتابة فقد منحك الله هذه القدرة. عسى الله أن يتقبل دعائي لكِ. بِصراحة هذا كل ما أستطيع قوله؛ لأن الكلمات لاتكفي!

(مريم)

كلماتك هزتني بقوة لدرجة أنني كثيرا ما أجد نفسي مضطرة للتوقف عن القراءة لوهلة لأسترد أنفاسي. كنتُ فخور دائمًا بكوني غير سطحية أو مادية، ومع ذلك كنت أعتمد على من أحب لأستمد منهم السعادة. وعندما خيبوا ظني فيهم أو تخلوا عني اهتز عالمي والأرض التي أقف عليها، فقد كانت لدي دائما الحاجة لأن أكون محبوبة، ومن الحب كنت أستقي السعادة. ولكني الآن في صراع دائم

مع نفسي لكي تدرك أن هذا الحب يجب أن يأتي من علاقتي مع الله سبحانه وتعالى، لا من علاقتي مع الناس. أنا مثالية ومعطاءة ومنحي السعادة للآخرين يجعلني أشعر بالسعادة؛ ومن الصعب جدًا على أن أتذكر وأن أدرك دائما أنه لا يصح توقع نفس الشيء من الناس ومن هذه الحياة. الحمد لله، قراءتي لكلماتك كانت أشبه بمراجعة شديدة للنفس، مراجعة لم أكن مستعدة يوما للقيام بها. لقد ساعدني كتابك كثيرا. بارك الله فيك لصدقك وصراحتك.

(ميار)

أريد أن أنتهز هذه الفرصة لأعرب لك عن إعجابي الشديد بمقالاتك. أنا قارئة نهمة منذ الثامنة من عمري. التهمت جميع الكتب المتاحة في أقسام التنمية الذاتية في المكتبات، كما أني أحب الرومي والغزالي وإقبال، والكثير من الكتاب العظماء الذين يخاطبون الروح. لماذا أخبرك بهذا؟ لأنه بعد قراءتي لكتابات الكثير من العظماء، وجدت قلبي وروحي في كتاباتك. إنك حقا واحدة من كتابي المفضلين. كلما أردت إلهاما، رجعت إلى مقالاتك كذلك وقد وجدت من احبه بعمق ومن أَعُده رفيق روحي، وحبي له زادني قربًا منه وتعلقًا به، ولذلك فكتاباتك هي فقط التى اتعلم من خلالها الواحد الأحد الذي لن يُفقَد والتمسُك بالعروة التي لن تنفصم! لقد علمتني ما هو الحب الحقيقي! أحب كتاباتك، وأنت مصدر إلهام كبير بالنسبة لي. أخي كذلك يحب أعمالك - نعم - وأصدقاؤه أيضًا.

أدعو الله أن يعطيك كل ما هو أفضل، ويجعلكِ دائمًا وسيلة لإلهامنا حبه سبحانه وتعالى! مع خالص حبنا الكثير لك.

(محسنة، جنوب إفريقيا)

عثرت صدفة على موقعك الإلكتروني وأشرطة محاضراتك المرئية منذ فترة قريبة، وقبل حدوث ذلك بقليل كنت أبحث عن «غذاء» لروحي ولقلبي. كنت أبحث عن كلمات قد تشفي قلبي الصدئ. عندها وجدت مدونتك الشخصية وأشرطة محاضرات المرئية. ما شاء الله يا أختي، إن الكلمات عاجزة عن وصف تأثير كتاباتك على قلبي وروحي. كل كلمة كتبتها تلمس قلبي وتكسر نفسي لأمارة بالسوء، وتبكيني. لا يمكنني شكرك بما فيه الكفاية على عملك الملهم والتَّذكِرة المتواصلة التي تعطيها لنا من خلال أعمالك. عسى الله سبحانه وتعالى أن يدخلك أعلى درجات الجنة ويكافئك في الدنيا والآخرة. شكرًا لكِ، شكرًا لكِ.

(منيرة، سنغافورا)

تذكرني توكل كرمان بياسمين مجاهد. الأولى أطلقت شرارة ثورة خارجية، والأخرى أطلقت شرارة ثورة داخلية.

(م.أ.)

ياسمين، أنا لا أعرفك وأنت لا تعرفيني، ولكنني أشعر بأنك قريبة جدًا مني! كل كلمة كتبتِها لمستني بعمق!

(نور)

أظن أنني كنت أعيش حياة النفاق، حيث كنت أقول فقط: إنني أحب الله، ولكن لم تعكس أفعالي هذا الشيء. بدأ التحول في حياتي عندما بدأت بمعرفة الجوهر الحقيقي لمعنى حب الله من مقالاتك ومحاضراتك. الحمد لله؛ كل شيء في حياتي استقام..!

(نظير)

ما شاء الله، لقد من الله عليكِ بالقدرة على النفاذ إلى القلوب وهزها، وجعلها تبدأ بالعمل كما ينبغي؟ نحمد الله على أناس مثل ياسمين مجاهد.

(غازي أ.)

بارك الله فيك وحماك دومًا. عسي أن تدخلي الجنة وتعيش هناك سعيدة للأبد. لا تستصغري قيمة الأرواح التي تأثرت بكلماتك، لعل الله ينظر إليك بعين الرضى في هذه الليلة! إذا كان هناك مكان أعمق من القلب فكلامي هذا نابع منه. أريدك أن تعرفي الهدية العظيمة والإلهام الذي جئتِ به للمجتمع المسلم، وخاصة الشباب.

قد تدركين هذا أو لا تدركينه، لكن الكثير من نقاطك أصاب الهدف بكشف المشكلات التي نواجها في هذا العالم.

في هذا العالم، حيث يبدو كل شيء على وشك الانهيار، أنت تمثلين أكثر من كونك «كاتبة جيدة» أو «محاضرة جيدة» أنت تمثلين الأمل بأنه ما زال هناك أناس شرفاء أطهار، وقد لا تعرفين أن الكثيرين يقولون إن وجودك يضفي شعورا بالراحة على الحضور، وهو شعور لا يمكن تحديد سببه بالضبط. أنا شخصيا أعزو ذلك إلى الصدق، فعندما يتحدث شخص بهذه الكلمات الصادقة، لا يستطيع القلب إلا أن يتفاعل معها.

لقد أعنتِ كثيرا من الناس على الخروج من أكثر الأوقات ظلامًا، جزاك الله خيرا على هذا. لقد جعلت الكثير من الناس يقومون بالأعمال الحسنة التي ما كان لهم أن يفعلوها من قبل، جزاك الله خيرًا على ذلك. عسى أن تتضاعف حسناتك كما تتضاعف أموال الأثرياء. ولكن الفرق أن جزاءك سيكون يوم القيامة. عسى أن تكوني أكثر ثراء منهم بمليارات المرات، وأتمنى أن أكون شاهدًا على ذلك، وأتمنى أن يستقبلك الرسول صلى وسلم عليه وسلم بأوسع الابتسامات وأدفأ الأحضان، لأنك واحدة من اتباعه التي حاولت بصدق أن تغير في هذا العالم, وقد فعلتِ.

أنا اعتذر إذا بدا كلامي مبالغا بعض الشيء؛ ولكن عذري هو أنني

وجـدت مـن خـلال كـتابـاتـك الـقوة على الـتمسك بـالله في أضـعف حالاتي. تمنيت لو اني كبرت معك لحاجتي الى صديق قوي الإيمان. كلامي هذا بالنيابة عن آلاف من الناس الذين كنتِ مصدر إلهام لهم هنا في لندن. جزاك الله ألف ألف خير إن شاء الله. أرى أنه يتوجب على التوقف الآن وإلا فسأطيل الحديث أكثر. السلام عليكم.

(محمد أ.)

عـندما أعـدت قراءة هـذه المقالة بعد سنة من قراءتي إياها لأول مـرة، وجـدت أن هـذه الـمقالـة هي التي غيرتني حـقًا. في الـحقيقة، لـم أكن مولعة بالإسلام ولم ألتزم به كثيرًا. كانت حياتي في ظلمات مع أناس جروني إلى الحضيض وجعلوني شخصًا لم يفترض بيه أن أكونه. فانغمست في الدنيا وقمت بأعمال لست فخورة بها على الاطلاق واصلت الفشل بعد الفشل والسقوط بعد السقوط. كنت أتعثر ولم أعد أعرف نفسي، إلى أن حصل لي أمر فظيع في إحدى الليالي أدركت في تلك اللحظة أن الله سبحانه وتعالى - في حقيقة الأمر - كان دائما هنا، ولكني أنا من كنت أتجاهله، أتجاهل الخالق. تلك الليلة، قلت لنفسي كفى، ورجـعت إلى الإسـلام. وعـدت إلى الـخالـق، بـعد تـلك الليلة، قمت برحلة لأغير حياتي. تلك الرحلة، مع الله سبحانه وتعالى الذي كان قائدي، استطعت أن أغير حياتي 360 درجة اليوم لا أتخيل حـياتي مـن غير الـحجاب. الـيوم لا أتـخيل حـياتي بـدون الـصلاة، أو الذهاب يوميا إلى المسجد أو حضور الحلقات اليومية. ياسمين؛ إن

لساني عاجز عن شكرك لنشرك هذه المقالة، والغوص بعمق في قلوب الجميع. استمعت لما كتبته؛ وأخذت مفاتيح الدنيا وأعطيتها إلى الخالق، انتِ امرأة ملهمة حقًا. لكِ مني كل الاحترام. شكرا جزيلًا.

(حميرة)

عسى أن يكافئك الله سبحانه وتعالى بجنة الفردوس، آمين. لا يمكنني أن أصف كم أن وجودك نعمة يا أختي ياسمين. دخولك لحياتي من خلال كتاباتك يقوي إيماني يوما بعد يوم ولله الحمد، بل إن كتاباتك تلهم الكثيرين من أصدقائي وأحبائي الذين كثيرا ما أطلعهم على أعمالك. لقد استجاب الله سبحانه وتعالى دعاءك حقًا حين دعوت الله سبحانه وتعالى أن تُستخدمي أداء لهداية الأمة!

(هجيرة م.)

مقدمة

استرجع قلبك ليس كتاب مساعدة ذاتية فحسب. إنه دليل لرحلة القلب داخل محيط هذه الحياة وخارجها. إنه كتاب عن كيفية حفظ قلبك من الغرق في أعماق ذلك المحيط، وما ينبغي عليك فعله عند غرقه. هذا الكتاب هو عن التوبة والأمل والتجديد. فكل قلب يشفى، وكل لحظة خلقت كي تقربنا من تلك العودة الحميدة. استرجع قلبك يتمحور حول العثور على تلك اللحظة عندما يتوقف كل شيء ويبدو مختلفا فجأة. إنه كتاب عن العثور على صحوتك، ومن ثم العودة إلى نسخة أفضل وأصدق وأكثر تحررا من نفسك.

الفهرست

المُتَعلّقات

لماذا يتحتم على الناس الفراق؟
الناس يغادرون، ولكن هل سيعودون؟
عن ملء الفراغ الداخلي والرجوع إلى الموطن
إفراغ الإناء
من أجل حب الهدية
أمان على سطح
محيط الدنيا
استرجع قلبك

الحب

الهروب من أسوأ سجن
هل ما أشعر به حب؟
الحب في الهواء
هذا هو الحب
أَحِبَّ ما هو حقيقي
الزواج الناجح: الحلقة المفقودة

المصاعب

الملاذ الوحيد من العاصفة
رؤية منزلك في الجنة: عند طلب العون الإلهى
الأذى من الآخرين: كيف نحتمله ونشفى

العلاقة مع الخالق

مكانة المرأة

الأمة

ألق عنك المسميات

كن مسلما، باعتدال

المأساة التي يصعب وصفها وحالة أمتنا

انشقاق البحر الأحمر

شعر

رسالة لكِ

أنا أحزن

خواطري فقط

تأمل عن الحب

دعوت اليوم من أجل السلام

عن معاناة الحياة

السكون

موتوا قبل أن تموتوا

أنقذني

قلبي كتاب مفتوح

الطعنة

مشكاة

واصل السير



المُتَعلّقات

لماذا يتحتم على الناس الفراق؟

عندما كنت في السابعة عشرة من عمري رأيت حلمًا، حلمت أني جـالـسة في مسجـد وإذا بـفتاة صغيرة تـتجه نـحوي مـوجـهة إلي سؤالا ،كان سؤالها: لماذا يتحتم على الناس الفراق؟ كان سؤالها ذا طابع، شخصي ولكن كان واضحا - بالنسبة لي - لماذا تم اختيار هذا السؤال ليتم توجيهه إلي.

كنت شديدة التعلق!

كنت شديدة التعلق بما حولي منذ طفولتي، وكانت هذه الصفة متجلية في شخصيتي، فـعندمـا كـان الأطـفال في الـروضـة يـتكيفون بسهولة بعد مغادرة ذويـهم، لم أتمكن أنا من ذلك، كانت عيناي تذرفان الدموع ويصعب عليها التوقف. وعندما كبرت اعتدت على أن أتـعلق بـكل مـا حـولي؛ ففي الـصف الأول الابـتدائي حـرصـت على أن تكون لي صديقة مقربة إلى نفسي، وعندما تقدم بي العمر أصبحت نهاية أية علاقة - بيني وبين أي صديقة - تجربة مدمرة لي!

لـم تـكن لـدي الـقدرة على التخـلي عــن أي شيء تـعلقت بـه؛ الأشخاص، والأماكن، والأحداث، والصور، واللحظات، حتى النتائج أصبحت مواضيع تستحق التعلق بها.

إذا لم تسر الأمور على ما يرام أو كما كنت أتوقع، كنت أصاب

بإحباط شديد. الإحباط الذي كان يصيبني لم يكن شعورا عاديًا بل كان كارثيا! عندما كنت أصاب بخيبة أمل، كان من المستحيل علي استعادة عافيتي، واستحال علي النسيان واندمال الجرح الحاصل. كان حالي أشبه بزهرية زجاجية وضعت على حافة طاولة فسقطت وتحطمت، وماكان بالإمكان إعادة قطعها إلى ما كانت عليه.

فالمشكلة لا تكمن في الزهرية، ولا أن الزهريات مقدر لها الانكسار دومًا، ولكنها تكمن في من وضعها على حافة الطاولة، وجعلها عرضة للسقوط، وهذا بالضبط ما كنت أفعله. كنت معتمدة على علاقاتي لإشباع حاجاتي، وسمحت لتلك العلاقات بأن تحدد أحزاني وافراحي، واكتفائي وفراغي، وأمني، حتى تقديري لذاتي. فكنت مثل الزهرية التي وضعت في مكان ستسقط منه حتما، مآلها الانكسار الذي لا يجبر، إن تعلقي الشديد بما هو حولي - بعبارة أخرى - جعلني أهيئ نفسي للإصابة بالإحباط، وأهيئ نفسي للانكسار. وهذا ما حصل فعلًا: خيبة أمل، وانكسار تلو انكسار.

من تسبب في كسري لا يُلام، كما لا تُلام الجاذبية التي أدت إلى سقوط الزهرية؛ لا يمكن أن نلوم قوانين الفيزياء عندما يكسر غُصين اتكأنا عليه ليدعمنا، وهو لم يخلق لذلك.

فأعباؤنا لن يعيننا على حملها إلا الله سبحانه وتعالى، كما قال عزوجل ﴿لا إِكراهَ فِي الدّينِ قَد تَبَيَّنَ الرُّشدُ مِنَ الغَيِّ فَمَن يَكفُر بِالطّاغوتِ وَيُؤمِن بِاللَّهِ فَقَدِ استَمسَكَ بِالعُروَةِ الوُثقى لَا انفِصامَ لَها وَاللَّهُ سَميعٌ عَليمٌ﴾ (البقرة: ٢٥٦) تتضمن هذه الآية درسا بليغا:

هناك عروة واحدة هي الدائمة، وهناك مصدر واحد يمكننا الاعتماد عليه، وهناك صلة واحدة تحدد لنا قيمتنا، ومصدر واحد لتحقيق السعادة الكاملة والاكتفاء والأمان. تلك الصلة وذلك المصدر هو الله سبحانه وتعالى. لطالما انشغلت البشرية في البحث عن طرق لإشباع تلك الاحتياجات والحرص على نيلها. بعضنا يطلبها فى مهنته، والبعض الآخر يبحث عنها في الغنى، ومنهم من يراها في المكانة، وآخرون مثلي يرونها في العلاقات.

في كتابها المعنون (طعام، صلاة، حب) تصف إليزابيث جلبرت رحلتها في بحثها عن السعادة، وتصور تنقلها من علاقة إلى أخرى، فضلًا عن السفر حول العالم لملء فراغها الروحي، حيث سعت إلى تحقيق ذلك من خلال علاقاتها، والقيام بالتأمل، بل وحتى عن طريق تناول الطعام، ولكنها لم توفق في الحصول على بغيتها.

هذا بالضبط ما كنت أقضي فيه معظم حياتي، باحثة عن وسيلة لملء فراغي الداخلي. فليس من الغريب إذا أن تسألني ذلك السؤال في منامي. كان سؤالا عن فقدان شيء ما وعن الشعور بخيبة الأمل، كان سؤالا عن الشعور بالخذلان. سؤالا عن البحث عن شيء والرجوع خالي الوفاض، سؤالا عما يحدث عندما تحاول أن تحفر أرضا قاسية بيدين مجردتين؛ فإنك لا ترجع خائبا فقط، ولكنك ترجع بأصابع مكسورة. لم أتعلم هذا خلال القراءة ولم أسمعه من حكيم أو واعظ، وإنما من تجربة تلو أخرى.

ومن ثم كان سؤال البنت الصغيرة لي هو ما كنت أسأله أنا لنفسي،

وفي حقيقة الأمر كان السؤال هو عن طبيعة الدنيا وما جبلت عليه، فهي لحظات عابرة وعلاقات مؤقتة، ومكان يكون فيه الناس معك اليوم وغدا يموتون ويفارقونك. هذه الحقيقة مؤلمة جدا لأنها تبدو مناقضة لطبيعتنا. نحن بشر جبلنا على البحث والتعلق والتطلع إلى كل ما يتصف بالكمال والأبدية، وجبلنا على البحث عما هو خالد. نتوق إلى تلك الأشياء لأننا لم تخلق لهذه الحياة الفانية، فمسكننا الأول والحقيقي هو الجنة، المكان الذي يجمع بين الكمال والخلود. فالحنين إلى تلك الحياة الأبدية الكاملة جزء من كينونتنا، ولكن المعضلة تكمن في محاولتنا الحصول عليها هنا في هذه الدنيا الفانية، فترانا نقوم بصنع عقاقير لإدامة الشباب، ونجري عمليات تجميل في محاولة يائسة للبقاء، وفي محاولة لإعادة تشكيل العالم، وتحقيق ما لا يمكن تحقيقه.

فإذا عشنا في هذه الدنيا بقلوبنا وعواطفنا، فإنها حتما ستكسرنا، ولهذا كانت هذه الدنيا مؤلمة بالنسبة لنا، والسبب في ذلك أن الدنيا - بوصفها دارا فانية ولا تتسم بالكامل - تعارض تماما كل شيء جُبلنا على السعي إليه. هذا التوقان الذي أودعه الله سبحانه وتعالى قلوبنا لن ينطفئ إلا بما هو كامل وخالد، وبالتالي فإن بحثنا عن طريقة لإطفائه فيما هو غير كامل ومعرض للفناء، أشبه بالجري خلف سراب، أو الحفر في أرض قاسية بأيدٍ مجردة. فالساعي لتحويل ما هو فانٍ بطبيعته إلى أبدي، كالساعي لاستخلاص الماء من النار، لا شك أنه سيحترق! فقط عندما نتوقف عن وضع آمالنا في الدنيا، فقط

عندما نتوقف عن محاولة جعل الدنيا شيئا مغايرًا لطبيعتها الفانية - حيث لم يقدر لها أن تكون (جنة) - عندها ستتوقف الحياة عن كسر قلوبنا وأصابتها بخيبة الأمل. يتوجب علينا أن ندرك أنه لا شيء يحدث بدون هدف، لا شيء! حتى خيبات الأمل وانكسار القلوب، بل وحتى الألم! ذلك القلب المكسور وذلك الألم هما دروس وعبر لنا، هما تحذير بأن هناك شيئا ما ليس على ما يرام، وأن هناك ما يستدعي قيامنا بالتغيير. فكما أن ألم الحرق هو ما يجعلنا نبعد يدنا عن النار، فإن الألم النفسي هو إشارة تحذير لنا بضرورة القيام بتغيير داخلي. نحن بحاجة إلى فك الارتباط، والألم هو شكل من أشكال فك الارتباط الإجباري مثل انفصالنا عن حبيب أو قريب اعتاد إيلامنا مرة تلو الأخرى فكلما آلمتنا الدنيا ابتعدنا عنها وتوقفنا عن حبها.

الألم هو علامة لتعلقنا بما هو غير حقيقي ومزيف، وبما هو مصدر للحزن والمعاناة، وكل ما نتعلق به من أمور يتحول في نهاية المطاف إلى عوائق تعترض طريقنا إلى الله سبحانه وتعالى. إلا أن الألم بحد ذاته عبارة عن إشارة ندرك من خلالها بطلان ما تعلقنا به من دون الله سبحانه وتعالى. الألم يوجد حالة في حياتنا نسعى إلى تغييرها، وبالتالي إذا كان هناك أي شيء - له صلة بحالتنا - لا يعجبنا وأردنا القيام بتغييره، فهنالك معادلة إلهية للقيام بذلك التغيير في قوله تعالى:﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَومٍ حَتّى يُغَيِّروا ما بِأَنفُسِهِم﴾ (الرعد: ١١).

إن ما أدركته بعمق وبعد سنين من السقوط في روتين خيبة الأمل وانكسار القلب، هو فهمي الحقيقي لمعنى حب الدنيا الذي كنت

أظنه مجرد التعلق بالماديات، وبما أنني لم أكن متعلقة بماديات بل كنت متعلقة بأناس، ومتعلقة بلحظات، ومتعلقة بمشاعر، فقد توهمت أنني ممن لم تشغلهم الدنيا بحبها وأني قد نجوت من هذا الداء، ولكن ما لم أدركه أن الناس واللحظات والمشاعر هي أجزاء من هذه الدنيا، وأن ما أصابني من ألم في حياتي، مصدره شيء واحد، شيء واحد فقط، هو حب الدنيا.

بإدراكي هذه الحقيقة، سرعان ما رُفعت الغشاوة عن عيني، وعرفت ماهية مشكلتي، وهي أني كنت أتوقع من الحياة أن تتصف بما ليس بها، وما لا يمكن أن تكونه: كاملة! وكوني مثالية كنت أحاول، بكل خلية من جسمي، أن أجعلها كذلك، كاملة! ولم أكن لأتوقف حتى تصبح كما كنت أريدها. بذلت دمي وعرقي ودموعي لأجل هذا المسعى؛ لتحويل الدنيا إلى جنة.

كنت أتوقع أن يتصف الذين من حولي بالكمال، وكنت أتوقع أن تكون علاقاتي كاملة، توقعات، وتوقعات، وتوقعات! إذا كانت هناك وصفة واحدة للتعاسة فهي: التوقعات ! ولكن هنا مكمن الخطأ بالنسبة لي. خطئي لم يكن فيها لدي من توقعات، فنحن - بني البشر - ينبغي لنا ألا نفقد الأمل، ولكن الخطأ الفادح يكمن في المكان الذي وضعت فيه تلك التوقعات وذلك الأمل! فأنا في حقيقة الأمر، لم أكن أضع أملي وتوقعاتي في الله سبحانه وتعالى، بل وضعتها في الناس والعلاقات والوسائل. فكان أملي في هذه الدنيا وليس في الله.

ومن ثم توصلت إلى إدراك حقيقة عميقة من آية بدأت تتردد في

ذهني، آية سمعتها من قبل، لكنني لأول مرة أدرك أنها تصفني: ﴿إِنَّ الَّذينَ لا يَرجونَ لِقاءَنا وَرَضوا بِالحَياةِ الدُّنيا وَاطمَأَنّوا بِها وَالَّذينَ هُم عَن آياتِنا غافِلونَ﴾ (يونس: ٧).

وباعتقادي أن بإمكاني الحصول على كل ما أريده في هذه الحياة الدنيا، لم يكن أملي هو لقاء الله، بل كان أملي في الدنيا. لكن ماذا يعني أن تضع أملك في الدنيا؟ وكيف يمكنك اجتناب ذلك؟ معنى هذا، أنه عندما يكون لك أصدقاء، لا تتوقع من أصدقائك هؤلاء أن يملئوا فراغك الروحي؛ وعندما تتزوج، لا تتوقع من شريك حياتك أن يلبي جميع احتياجاتك؛ وعندما تكون ناشطًا، لا تضع أملك في النتائج، وعندما تواجهك مشكلة، لا تتكل على نفسك أو الآخرين، اتكل على الله وحده.

التمس المساعدة من الآخرين، ولكن كن واثقا بأن الحفظ والسلامة لا يكونان منك، ولا من الآخرين، ولكن من الله وحده. الناس أدوات وأسباب يسخرها الله؛ ولكنهم ليسوا مصدر النجدة والعون والنجاة، مصدر ذلك كله هو الله؛ فالناس عاجزون حتى عن خلق جناح ذبابة (الحج: 73). فاجعل قلبك متوجها إلى الله في جميع معاملاتك مع الناس، إليه وحده؛ كما قال سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنّي وَجَّهتُ وَجهِيَ لِلَّذي فَطَرَ السَّماواتِ وَالأَرضَ حَنيفًا وَما أَنا مِنَ المُشرِكينَ﴾ (الأنعام: ٧٩).

ولكن كيف يصف إبراهيم عليه السلام رحلته للوصول إلى تلك الحالة من التسليم الكامل لله؟ بمراقبة القمر والشمس والنجوم،

أدرك أنها لا تتصف بالكمال وأنها تأفل، وبالتالي فهي مخلوقات تصيبنا بالإحباط وخيبة الأمل، ولهذا اتجه إبراهيم عليه السلام إلى الله سبحانه وتعالى وحده، الدائم الباقي، المتصف بالكمال. مثل إبراهيم يتوجب علينا أن نضع أملنا وثقتنا، وتوكلنا الكامل على الله سبحانه وتعالى، عليه وحده. إذا فعلنا ذلك فسوف تعلم حقا معنى السكينة واطمئنان القلب، وسيختفي طابع الفوضى والضياع، الذي كان يسود حياتنا سابقًا. السبب في ذلك يكمن في أن اعتماد حالتنا الروحية على شيء غير ثابت، سيجعلها غير ثابتة، وإذا كانت معتمدة على ما هو متغير، وغير دائم، فستكون في حالة عدم استقرار وهياج وعدم ارتياح. كل ما سبق يعني أننا سنكون في لحظة ما سعداء، وسرعان ما تتبدد تلك السعادة عندما نفقد مصدرا ذلك، فيصيبنا الحزن، ويجعلنا في تارجح دائم بين السعادة والشقاء، دون أن ندرك السبب.

نشعر بهذا التأرجح العاطفي لأننا لن نستطيع الحصول على التوازن والراحة الدائمة، إلا إذا تعلقنا بما هو متزن ودائم. كيف نأمل أن نجد الثبات والدوام إذا كان ما نتمسك به هالكا وغير ثابت؟ في قول أبي بكر تصوير عميق لهذه الحقيقة: بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم صعق الناس وصعب عليهم تقبل الخبر، ومع أنه لم يكن هناك من يحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من أبي بكر، فقد كان موقنا كل اليقين بأن اعتماده يكمن في مصدر واحد، هو الله الباقي فلذلك كان قوله: «من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد

مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت».

ولن تبلغ هذه الدرجة من اليقين إلا إذا كان مصدر سعادتك هو علاقتك بالله، فلا تجعل تعريفك للنجاح والفشل، أو تقديرك لذاتك، شيئًا غير مكانتك عند الله (الحجرات: 13) وإذا فعلت ذلك فستكون غير قابل للتحطم؛ لأنك أمسكت بما هو غير قابل للتحطم! ولن يغلبك أحد؛ لأن داعمك لا غالب له! ولن تصبح خاويا؛ لأن مصدر امتلائك لا ينتهي ولا ينضب.

عندما أتذكر منامي الذي جاءني وأنا في السابعة عشرة من عمري، أتساءل إن كانت تلك البنت الصغيرة هي أنا؟ أتساءل، لأن ما أجبتُها به كان درسًا لي، قدر لي أن أعيش سنوات مؤلمة من حياتي لاتعلمه. كان جوابي عن سؤالها الذي طرحته - لماذا يتحتم على الناس الفراق؟ - هو: «لأن الحياة الدنيا ليست كاملة، لأنها إذا كانت كذلك، فبمَ سنسمي الآخرة؟».

الناس يغادرون، ولكن هل سيعودون؟

الفراق صعب! الفقدان أصعب! قبل أسابيع قليلة سألت السؤال: لماذا يتحتم على الناس الفراق؟ الجواب أخذني إلى أعمق الحقائق التي أدركتها، وأشد الصراعات التي مرت عليَّ في حياتي. كما قادتني الإجابة أيضا للتساؤل: بعد المغادرة، هل سيعودون؟ بعدما يُسلَب منا شيء نحبه، هل سنسترده؟ هل الفقدان دائم، أم وسيلة فقط لهدف أسمى؟ هل الفقدان هو النهاية ذاتها، أم هو علاج وقتي لعلل قلوبنا؟

هناك شيء مذهل في هذه الحياة، فالسمة الدنيوية التي تسبب لنا الألم هي نفسها أيضًا التي تعطينا الراحة، لا شيء هنا أبدي. ماذا يعني هذا؟ يعني أن الوردة الجميلة التي تخطف الأبصار في مزهريتي ستذبل غدا، وهذا يعني أن شبابي سيخذلني. ولكن ذلك يعني أيضا أن الحزن الذي أشعر به اليوم سيتغير غدا. ألمي سيتلاشى، ضحكتي لن تدوم إلى الأبد، ودموعي كذلك. نحن نقول بأن هذه الحياة ليست كاملة، ولن تكون كذلك؛ هي ليست حسنة تماما، ولكن - هي أيضًا - ليست سئية تمامًا.

الله المجيد أخبرنا في آية بليغة جدًا:﴿فَإِنَّ مَعَ العُسرِ يُسرًا﴾ (الشرح: ٥). عندما كبرت أدركت أن فهم ي لهذه الآية كان خاطئًا..

اعـتدت أن أظـن أنـها تعني بـعد العسر يـأتي اليسر. وبـعبارة أخـرى، اعـتقدت أن الـحياة مـؤلـفة مـن أوقـات حـسنة وأوقـات سـيئة، وأن الأوقـات الـسيئة والأوقـات الـحسنة يـعقب بـعضها بـعضا. كما لـو أن الـحياة كلها سيئة. ولكن ليس هـذا ما تـذكـره الآية؛ الآيـة تـقول «مع» الـعسر يـأتي اليسر. اليسر يـأتي في وقـت العسر نـفسه؛ هـذا يعني أن لا شيء في هـذه الـحياة كله سيئ تـمامًا أو كله حـسن. في كل وضـع سيئ، يكون هـناك دائـما شيء يـستوجـب الـشكر. مـع الـشدائـد، يـعطينا الله سبحانه وتعالى أيضًا القوة والصبر لتحملها.

إذا تأملنا الأوقات الصعبة في حياتنا فسنرى أنها كذلك ملئت بخير كثير. السؤال هو: ما الذي نختار التركيز عليه؟ أرى أن الفخ الذي نقع فـيه مـتجـذر في اعـتقادنـا الـزائـف بـإمكانـية كمال هـذه الـحياة. حـسنة تـماما أو سـيئة تـماما. لـكن هـذه لـيسـت طـبيعة الـدنـيا، فـهذه طـبيعة الآخـرة. جُعِلت الآخـرة لـكمال الأشـياء، فـالـجنة كـامـلة الـحسن تـمامًا، ولـيس فـيها أي سـوء، وفي الـمقابـل جـهنم (اعـاذنـا الله مـنها) كـامـلة السوء تمامًا، ولا حسن فيها.

بفهمي الـخاطئ لـهذه الـحقيقة أصـبحت غـارقـة في الـظروف الآنـية لحياتي (سواء أكانت حسنة أم سيئة). تعاملت مع كل موقف بشدة، كما لـو كان نـهائـيًا أو أبـديًـا، والـطريـقة التي كـنت أشـعر بـها في تـلك اللحـظة غيرت الـعالـم بـأكمله وكل شيء فـيه بـالـنسـبة لي. فـإذا كـنت سعيدة في تلك اللحظة، فإن الماضي والحاضر، والقريب هي والبعيد، والكون بأكمله حسن في تلك اللحظة، كما لو كان من الممكن وجود

الكمال هنا، والشيء نفسه يحدث مع المواقف السيئة؛ الحالة السلبية تغشى كل شيء، وتصبح العالم كله، الماضي والحاضر، والكون بأكمله. يصبح سيئا في تلك اللحظة. والسبب في ذلك أن تلك اللحظة تصبح هى كوني كله، ولا أستطيع أن أرى أي شيء خارجها، فلا يوجد شيء آخر في تلك اللحظة؛ إذا ظلمتني اليوم، فهذا يعني أنك لم تعد تهتم بي، وليس بسبب كون تلك اللحظة الوحيدة التي ظلمتني فيها جزءً من سلسلة من اللحظات اللامتناهية المصبوغة بتلك الصبغة السلبية، أو بسبب كوننا أنت وأنا وهذه الحياة غير كاملين. ماكان يخالجني أو أشعر به في تلك اللحظة أصبح بديلا عن السياق، لأنه أصبح بديلا عن رؤيتي للعالم بأكمله.

أعتقد أن طبيعتنا التجريبية، تجعل بعضا منا شديد العرضة لهذ الأمر. ربما هذا هو السبب الذي يجعلنا نقع فريسة لظاهرة «لم أر منك خيرًا قط» التي جاءت في حديث للرسول صلى الله عليه وسلم ربما يقول بعضنا أو يشعر بهذا لأنه في تلك اللحظة فعلا، من تجربته، لم يشعر بأي خير، لأن شعورنا في تلك اللحظة يستبدل كل شيء ويحدده، بل إنه يصبح كل شيء، فالماضي والحاضر معًا يختزلان في لحظة تجريبية واحدة.

لكن يقيننا التام بأنه لا شيء كامل في هذه الحياة، يحول تجربتنا في تلك اللحظة. فجأة يتوقف انهماكنا التام في تلك اللحظات، فمن خلال فهمنا أن لا شيء بدون حدود، وأن لا شيء هنا كامل يعيننا الله سبحانه وتعالى على الوقوف خارج تلك اللحظات ورؤيتها على

حقيقتها؛ فتلك اللحظات ليست أكوانا، ولا حقائق، ولا الماضي والحاضر، بل إن كل واحدة منها عبارة عن لحظة عابرة في سلسلة من اللحظات التي لا نهاية لها.. وكل تلك اللحظات ستمر أيضا.

عندما أبكي أو أخسر أو أتألم - ما دمتُ حية - فإنه لا شيء نهائي، ما دام هناك غد أو لحظة أخرى، فإن هناك املا، وهناك تغيير وهناك توبة، ما فقد لم يفقد إلى الأبد.

ففي جوابي عن السؤال: هل الشيء المفقود سيعود إلينا؟ تأملت أجمل الأمثلة: هل عاد يوسف لأبيه؟ هل رجع موسى عليه السلام لوالدته؟ هل عادت هاجر لإبراهيم عليه السلام؟ هل عادت الصحة والثروة والأولاد لأيوب عليه السلام؟ من هذه القصص نستقي دروسًا رائعة: ما أخذه الله سبحانه وتعالى لن يضيع أبدا. في الحقيقة، إن الذي عند الله سبحانه وتعالى هو الذي يبقى، وكل شيء آخر يفنى. قال الله سبحانه وتعالى:﴿ما عِندَكُم يَنفَدُ وَما عِندَ اللَّهِ باقٍ وَلَنَجزِيَنَّ الَّذينَ صَبَروا أَجرَهُم بِأَحسَنِ ما كانوا يَعمَلونَ﴾ (النحل: 96).

لهذا كل ماكان مع الله سبحانه وتعالى لن يضيع، وفي الحقيقة فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (إِنَّكَ لَنْ تَدَعَ شَيْئا اِتِّقَاءً لله إِلَّا أَعْطَاكَ الله خَيْرا مِنْهُ) (مسند الأمام أحمد). ألم يأخذ الله سبحانه وتعالى زوج أم سلمة لكي يستبدل به محمدًا صلى عليه وسلم؟

أحيانا يأخذ الله ليعطي، ولكن من الضروري أن نفهم أن عطاءه لا يكون دائما بالشكل الذي نريده، فهو يعلم ما هو الأفضل. يقول الله

تعالى: ﴿وَعَسى أَن تَكرَهوا شَيئًا وَهُوَ خَيرٌ لَكُم وَعَسى أَن تُحِبّوا شَيئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُم وَاللَّهُ يَعلَمُ وَأَنتُم لا تَعلَمونَ﴾ (البقرة: 216) لكن إذا كان الشيء سيرجع لنا بشكل أو بآخر، فلماذا يؤخذ منا إذن؟ سبحان الله! إننا من خلال عملية الفقدان نُمنح.

يعطينا الله هدايا، لكن في كثير من الأحيان نعتمد على تلك الهدايا عوضًا عن اعتمادنا عليه عندما يعطينا المال نعتمد على المال وليس عليه سبحانه؛ وعندما يعطينا الأصحاب نعتمد على الأصحاب وليس عليه سبحانه؛ وعندما يعطينا المركز والسلطة نعتمد عليها، ونغتر بتلك الأشياء؛ عندما يعطينا الله سبحانه وتعالى الصحة، ننخدع ونتصور أننا لن نموت أبدا. الله يعطينا الهدايا ولكننا بعد ذلك نحبها مثلما يتوجب علينا أن نحبه، هو فقط. نأخذ تلك الهدايا وندخلها في قلوبنا، إلى أن تتحكم فينا. وسرعان ما نصبح غير قادرين على العيش بدونها، وتصبح كل لحظة انتباه، ضائعة بالتأمل في تلك الهدايا والخضوع لها وعبادتها. العقل والقلب اللذان خلقها الله، يصبحان ملكًا لشخص أو شيء آخر. وعندئذ يأتي الخوف من الفقدان، ذلك الخوف الذي يبدأ بشلنا. الهدية التي يفترض أن تبقى في أيدينا - تتملك قلوبنا، والخوف من فقدانها يستغرقنا، بل وسرعان ما يصبح ماكان مجرد هدية فقط - سلاح تعذيب، وسجنًا من صنعنا. كيف نستطيع أن نتحرر من هذا؟ أحيانا برحمته الواسعة، يحررنا الله سبحانه وتعالى بأخذها بعيدًا عنا.

ونتيجة لذهابها نرجع إلى الله سبحانه وتعالى بقلب منيب، فمع

ذلك اليأس والحاجة نتوسل ونتضرع وندعو. من خلال الفقدان، نصل إلى مرتبة الإخلاص والتواضع والاعتماد عليه، والتي لم نكن لنصلها بطريقة أخرى، لو لم تؤخذ منا تلك الهدية. الفقدان يجعل قلوبنا تتحول تماما لتتوجه إليه سبحانه.

ماذا يحدث عندما تعطي طفلا دمية أو لعبة فديو جديدة طالما تمناها؟ سيصبح مستغرقًا فيها، ولا يرى شيئا سواها، وسرعان ما سيفقد الرغبة في عمل أي شيء آخر، ولن يريد القيام بواجباته، وستشغله حتى عن تناول طعامه. لقد أصبح مستسلمًا لما يضره، إذن ماذا ستفعل كونك والدًا محبًا لطفلك؟ هل ستتركه ليغرق في إدمانه وفقدانه الكامل للتركيز والتوازن؟ بالطبع لا.

ستأخذها منه!

بعد ذلك، عندما يستعيد الطفل التركيز على أولوياته، ويستعيد سلامة عقله وتوازنه، وعندما توضع الأشياء في مكانها المناسب في قلبه وعقله وحياته، ما الذي سيحدث؟ ستعيد له الهدية، أو ربما شيئا أفضل، لكن هذه المرة لم يعد مكانها في قلبه. إنها في مكانها المناسب؛ إنها في يده.

خلال عملية الأخذ هذه يحصل شيء في غاية الأهمية. ففقدان الهدية واسترجاعها غير مهم، بل المهم أخذ غفلتك، واعتمادك وتركيزك على آخرين غيره، واستبدال كل ذلك بالتذكر والاعتماد و التركيز عليه وحده. هذه هي الهدية الحقيقية الله يأخذ ليعطي.

ولهذا أحيانًا، (الشيء الأفضل) هو الهدية العظمى: القرب منه. أخذ الله سبحانه وتعالى ابنة مالك بن دينار لينقذه. أخذ ابنته، لكنه استبدل بها نجاته من نار الجحيم، الخلاص من حياة مؤلمة سببها الذنوب والبعد عنه. من خلال فقدانه لابنته، تنعم مالك بن دينار بحياة أنفقها في التقرب إلى الله سبحانه وتعالى، وحتى ابنته التي أُخذت منه ستبقى معه في الجنة أبدا.

ابن القيم رحمه الله يتكلم عن هذه الظاهرة في كتابه، مدارج السالكين، حيث يقول: " فإنه سبحانه يقضي لعبده المؤمن قضاءً إلا كان خيرًا له؛ ساءه ذلك القضاء أو سره، فقضاؤه لعبده المؤمن المنع عطاء وإن كان في صورة المنع، ونعمة وإن كانت في صورة محنة، وبلاؤه عافية وإن كان في صورة بلية ".

وبالعودة لهذا السؤال الذي طرح سابقًا، عندما نفقد شيئا، هل سيعود؟ الجواب هو: نعم، سيعود. أحيانا هنا، وأحيانا هناك، وأحيانًا بشكل مختلف وأفضل. لكن الهدية العظمى تكمن في الأخذ والعطاء. يقول الله تعالى:﴿قُل بِفَضلِ اللَّهِ وَبِرَحمَتِهِ فَبِذلِكَ فَليَفرَحوا هُوَ خَيرٌ مِمّا يَجمَعونَ﴾ (يونس: 58).

عن ملء الفراغ الداخلي والرجوع إلى الموطن

كنا في موطننا.

وبعد ذلك لم نعُد فيه. انتزعنا من منشئِنا، سافرنا عبر الزمان والمكان إلى عالم آخر. عالم أدنى، ولكن بهذا الانفصال حدث شيء مؤلم، فلم نعد مع الله سبحانه وتعالى في الحيز المكاني نفسه، لم نعد نراه بأعيننا الطبيعية أو نتحدث معه بصوتنا الطبيعي، فبخلاف أبينا آدم عليه السلام لم نعد نشعر بالأمان نفسه.

هكذا هبطنا. انتُزعنا منه. ومن ألم ذلك الفراق، نزفنا. لأول مرة نزفنا، وهذا الانتزاع من. خالقنا ترك جرحًا بليغًا، جرحا غائرا ولدنا معه جميعا، وكلما كبرنا زاد ألم ذلك الجرح وأصبح أعمق وأعمق، وكلما مر الوقت ابتعدنا شيئا فشيئا عن الترياق، الكامن في فطرتنا وهو القرب منه، قلبًا وروحًا وعقلًا.

هكذا ومع كل سنة تمر نصبح بحاجة أكثر فأكثر لملء ذلك المكان الخاوي، ولكن في سعينا الحثيث لملء هذا الفراغ نتعثر. كل منا يتعثر، ولكن بأشياء مختلفة. كثير منا اتجه لتخدير إحساسه بالفراغ، فبعض البشرية تعثرت بالمخدرات أو الكحول، وبعض آخر بحث عن مسكنات أخرى، والبعض الآخر تعثر بعبادة المتع المادية، والمركز أو المال، وبعضنا خسر نفسه بانغماسه بوظيفته.

وأخيرا، بعضنا تعثر بعلاقاته بالناس وبعضنا فقد نفسه هناك.

ولكن ماذا لو كانت كل عثرة، وكل تحد وكل تجربة في حياتنا؛ المقصود منها هدف واحد: لإعادتنا إلى موطننا الأصلي؟ ماذا لو كان كل فوز وكل خسارة وكل جمال وكل سقوط وكل قسوة وكل ابتسامة القصد منها فقط رفع عائق آخر بيننا وبين الله سبحانه وتعالى؟ بيننا وبين بدايتنا، والمكان الذي نتوق للعودة إليه؟

ماذا لو كان كل شيء من أجل رؤيته سبحانه وتعالى؟

يجب أن نعلم أن كل التجارب التي نمر بها في حياتنا ذات هدف، ونحن من يختار إدراك هذا الهدف أم لا. نأخذ مثالا على ذلك، الجبال؛ بعض الناس لا يميزون الجبال حتى إذا كان ماثلًا أمامهم، يستطيعون التجول في ساعة الغروب أو اجتياز غابة من أشجار البرتقال، دون أن يلاحظوا أي شيء.

وهناك آخرون يرون الجمال ويفتنون به. سيقفون ويتأملون. ربما يكون شعورهم غامرًا وفياضًا، ولكنه ينتهي. عند ذلك الحد. هذا الصنف من الناس مثل الشخص الذي يعجب بالفن ولكنه لا يسأل أبدا عن الفنان. فالعمل الفني نفسه مقصده إبلاغ رسالة من الفنان؛ ولكن إذا أضاع محب الفن نفسه في اللوحة، ولم ير الرسالة، فإن العمل الفني لم ينجز هدفه الحقيقي.

الغرض من الشمس المتألقة، وأول سقوط للثلج، والأهِلّة، والمحيطات التي تبهر الأنفاس، ليس فقط زخرفة كوكبنا الموحش.

الهدف أعمق من ذلك بكثير؛ الهدف كما أخبرنا الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم:﴿إِنَّ في خَلقِ السَّماواتِ وَالأَرضِ وَاختِلافِ اللَّيلِ وَالنَّهارِ لَآياتٍ لِأُولِي الأَلبابِ الَّذينَ يَذكُرونَ اللَّهَ قِيامًا وَقُعودًا وَعَلى جُنوبِهِم وَيَتَفَكَّرونَ في خَلقِ السَّماواتِ وَالأَرضِ رَبَّنا ما خَلَقتَ هذا باطِلًا سُبحانَكَ فَقِنا عَذابَ النّارِ﴾ (آل عمران: 190 - 191).

كل هذا الجمال خُلق كى يكون إشارة، بيد أنه لا يفهمها إلا الخواص: أولئك الذين يتأملون (يفكرون ويفهمون ويستخدمون عقولهم) ويتذكرون الله في كل الأحوال (قياما وقعودا وعلى جنوبهم).

وبالتالي، ينبغي علينا أن نتمعن حتى في غروب الشمس، وحتى خلال تمعننا لا ينبغي أن نفقد أنفسنا، بل ينبغي أن ننظر إلى ما وراء ذلك الجمال الساحر، واللون البديع، لنرى ذلك الجمال المستور وراءه، لأن الجمال الذي وراءه هو الجمال الحقيقي، وهو منبع كل جمال، وكل ما نراه هو انعكاس فقط.

علينا أن نتأمل النجوم والأشجار والجبال المكللة بالثلوج، لكي نقرأ الرسالة الكامنة وراءها، لأننا! لم إذا نفعل ذلك سنكون كمن يجد رسالة داخل قارورة جميلة ومزخرفة، ويفتن بجمال تلك القارورة، لدرجة انشغاله عن فتح الرسالة نفسها.

ولكن ما هي تلك الرسالة الكامنة خلف وهج تلك النجوم؟ هناك علامة! علامة على ماذا؟ تلك العلامات مؤشرات إليه، مؤشرات على عظمته وجلاله وجماله، ومؤشرات على جبروته وسلطانه.

تفكر وتأمل واستوعب جمال وعظمة ما خلق، لكن لا تتوقف عند هذا الحد. لا تضيع نفسك بالجمال، وانظر إلى ما وراءه وفكر مليا. إذا كانت المخلوقات بهذا السحر! وبهذه العظمة! وبهذا الجمال! فكيف سيكون سحر الخالق وعظمته وجماله؟

وفي النهاية يجب عليك أن تدرك، من خلال خبرتك، الآتي:

﴿رَبَّنا ما خَلَقتَ هذا باطِلًا سُبحانَكَ﴾ (آل عمران: 190).

غرض! كل شيء له غرض! لا شيء في السماوات أو في الأرض أو بداخلي أو بداخلك خلق بدون غرض! لا حادثة في حياتك، ولا حزن ولا سعادة، ولا ألم ولا فرح، ولا فقدان خلق بدون غرض! فكما ينبغي علينا أن نقرأ " الرسالة في داخل القارورة " الخاصة بالشمس والقمر والسماء، ينبغي علينا أيضا أن نتفحص الرسائل الناتجة عن تجاربنا.

دائما ما نبحث عن آيات، ودائما ما نطلب من الله سبحانه وتعالى ان " يكلمنا ". ولكن في حقيقة الأمر تلك الآيات تحيط بنا من كل جانب، فهي في كل شيء. الله سبحانه وتعالى " يتكلم " دائما. السؤال هو إذا ما كنا نستمع. يقول الله تعالى:﴿وَقالَ الَّذينَ لا يَعلَمونَ لَولا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَو تَأتينا آيَةٌ كَذلِكَ قالَ الَّذينَ مِن قَبلِهِم مِثلَ قَولِهِم تَشابَهَت قُلوبُهُم قَد بَيَّنَّا الآياتِ لِقَومٍ يوقِنونَ﴾ (البقرة: 118).

إذا نظرنا فيما وراء وخلال كل شيء يحدث لنا، كل شيء نفعله، أو نعجز عن فعله، ورأينا الله سبحانه وتعالى، نكون قد فهمنا الغرض. إذا حدث شيء تتمناه احذر أن يفوتك المقصد. تذكر ألا شيء يحدث

بدون سبب. ابحث عنه. ابحث عن الغرض الذي أودعه الله سبحانه وتعالى ما أعطاك. اى مظهر لذاته يريد سبحانه أن يريك من خلال ما وهبك اياه؟ ما الذي يريده منك؟

كذلك عندما يحدث شيء لا ترغب بحدوثه، أو شيء يؤذيك، احذر أن تضيع في الوهم الذي خلقه الألم. انظر إلى ما وراءه. اعثر على الرسالة التي في القارورة. اعثر على الغرض! ودعه يقودك لشيء أكبر منه سبحانه وتعالى.

إذا كانت زلة أو حتى سقوط في دينك، لا تجعل الشيطان يخدعك، بل دع الزلة تجعلك شاهدا على رحمته بطريقة أكثر تجريبية وعمقًا. ابحث تلك الرحمة لتنقذك، من ذنوبك، وظلمك لنفسك.

إذا كانت هناك مشكلة ليس لها حل، فلا تيئس. المح قدرة الفتاح، الذي يفتح لعباده أي أمر مغلق. وإذا كانت هناك عاصفة، لا تدع نفسك تذهب مهبها. دعها تُشهدك كيف أنه هو وحده القادر على إنقاذ عبده من العاصفة، عندما لا يكون أي أحد آخر قربك.

وتذكر عندما تفنى الخلائق برمتها، ولا يتبقى أي شيء آخر في الوجود إلا هو، فسيسأل الله تعالى:﴿لِمَنِ المُلكُ اليَومَ﴾ (غافر: 16) وتمام الآية:﴿يَومَ هُم بارِزونَ لا يَخفى عَلَى اللَّهِ مِنهُم شَيءٌ لِمَنِ المُلكُ اليَومَ لِلَّهِ الواحِدِ القَهّارِ﴾ (غافر: 16).

لمن الملكوت اليوم؟ حاول أن تشهد حتى ولو جزءً من هذا في

هذه الحياة. لمن الملك اليوم؟ من غيره لديه القدرة على إنقاذك؟ من غيره يتولى رعايتك؟ من غيره يستطيع أن يداوي قلبك؟ من غيره يستطيع أن يرزقك؟ من غيره تستطيع أن تفر إليه؟ من غيره؟ لمن الملك اليوم؟

للواحد القهار. الفرار لأي شيء آخر غيره هو مقاومة للقهار. أن تقصد أي شيء آخر غير (الواحد)، سيجعلك مشتتا و خاويا. كيف لنا أن نحقق الوحدة؛ أي كمال القلب أو الروح أو العقل، في شيء آخر غيره؟ وبالتالي في طريقنا هذا للعودة إلى حيث بدأنا، من غيره يمكن أن نلوذ به؟ من غيره نستطيع أن نقصده؟ في نهاية المطاف، كلنا يريد الشيء نفسه: أن نكون كاملين، وأن نكون سعداء، وأن نقول مرة أخرى: نحن في موطننا.

إفراغ الإناء

قبل أن تتمكن من ملء أي إناء، عليك أن تفرغه أولا. فالقلب إناء. ومثل أي إناء لابد من إفراغه قبل التمكن من ملئه مرة أخرى، ولا يستطيع أي امرئ أن يأمل بملء قلبه بالله سبحانه وتعالى إذا كان إناؤه مملوءا بغيره سبحانه وتعالى.

إفراغ القلب لا يعني ألا تحب، بل العكس من ذلك، فالحب الحقيقي مثلما يريده الله سبحانه وتعالى، يكون الأنقى عندما لا يُبنى على علاقات زائفة. إن عملية إفراغ القلب أولا نجدها في النصف الأول من الشهادة. لاحظ أن الشهادة تبدأ بنفي حاسم، بعملية إفراغ ضرورية قبل أن نأمل الوصول إلى التوحيد الحقيقي. وقبل أن نرسخ إيماننا بالإله يجب أن نعلن أولا: " لا إله ". الإله هو محور العبادة، لكن ما ينبغي علينا فهمه أن الإله ليس مجرد شيء ندعوه. الإله هو من تتمحور حياتنا حوله، هو من نطيع، هو من يكون لنا في قمة الأهمية، وفوق كل شيء.

هو من نعيش له، ولا نستطيع العيش بدونه.فكل شخص سواء أكان ملحدًا أم «لا أدريا» أم مسلمًا أم مسيحيًا أم يهوديًا لديه إله. المعبود لكثير من الناس شيء موجود في هذه الحياة الدنيا. فبعض يعبد الغنى، وبعض يعبد المركز، وبعض يعبد الشهرة، وبعض يعبد

قدراته العقلية، وبعض الناس يعبدون أشخاصًا. وكثير، كما يصفهم القرآن، يعبدون أنفسهم ورغباتهم وشهواتهم يقول الله سبحانه وتعالى:﴿أَفَرَأَيتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلى عِلمٍ وَخَتَمَ عَلى سَمعِهِ وَقَلبِهِ وَجَعَلَ عَلى بَصَرِهِ غِشاوَةً فَمَن يَهديهِ مِن بَعدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرونَ﴾ (الجاثية: 23).

هذه المعبودات هي الأشياء التي تتعلق بها، وما نتعلق به ليس مجرد شيء نحبه فحسب، بل هو شيء نكون بحاجة إليه، بأعمق ما تحمله هذه الكلمة من معنى. هو شيء إذا فقدناه سبب لنا ذلك دمارا كاملًا. إذا تعلقنا بأي شيء - أو أي شخص - غير الله سبحانه وتعالى ولم نستطع التخلي عنه، فما لدينا هو علاقة مزيفة. لماذا أمر إبراهيم عليه السلام بالتضحية بابنه؟ لتحريره. لتحريره من تعلق زائف. فبعد ما تحرر، أعيد له ماكان يحب لا ماكان متعلقا به.

إذا كان فقداننا لأي شيء - أو أي شخص - يكسرنا تماما، فنحن بصدد تعلق زائف. فالعلاقات الزائفة هي ما نخشى فقدانها إلى درجة الرعب. هي أشياء إذا ما خالجنا شعور بفقدانها وحرماننا منها، فإننا سنلاحقها بتهور. نلاحقها لأن فقداننا لما تعلقنا به سيسبب لنا جزعًا شديدًا، وبقدر شدة تعلقنا، ستكون شدة الجزع عند فقداننا له. تلك العلاقات قد تكون بمال أو مقتنيات، أناس أو أفكار، ملذات أو مخدرات، مركز أو وظيفة، صورتنا أو رؤية الآخرين لنا، مظهرنا الخارجي أو جمالنا، طريقة لبسنا أو كيف نبدو للآخرين، شهاداتنا أو مناصبنا، شعورنا بالتحكم أو ذكائنا وفطنتنا. لن نستطيع أن نفرغ إناء

قلبنا إلا بكسر هذه العلاقات الزائفة، وإذا لم نفرغ ذلك الإناء، فلن نستطيع أبدا ملئهُ بالله سبحانه وتعالى.

إن جهاد أحدنا ليحرر قلبه من العلاقات الزائفة، الجهاد لإفراغ إناء القلب، هو الجهاد الأعظم في هذه الحياة الدنيا. هذا الجهاد هو جوهر التوحيد، وسترى أن أركان الإسلام الخمسة - إذا ما تأملتها بعمق - هي خير معين للتحرر من القيود الدنيوية:

الشهادة: إعلان لفظي للتحرر الذي نريد أن نصل إليه. إعلان بأن معبودنا ومن نتضرع إليه ونحبه ونخافه ونرجوه هو الله، والله وحده. النجاح في تحرير النفس من كل العلاقات عدا العلاقة بالخالق، هو التجسيد الحقيقي للتوحيد.

الصلاة: يتوجب علينا الابتعاد عن الدنيا خمس مرات يوميًا، للتركيز على خالقنا وغرضنا السامي. خمس مرات يوميًا، ننتزع أنفسنا من كل ما نمارسه في حياتنا اليومية، ونتوجه إلى الله سبحانه وتعالى كان من الممكن أن تفرض علينا الصلاة مرة واحدة في اليوم أو الأسبوع، أو أن تقام الصلوات الخمس في وقت واحد من اليوم، لكنها ليست كذلك. فالصلوات موزعة طوال اليوم، فإذا أقام الشخص الصلوات في أوقاتها المحددة المعلومة، فلن تتاح له فرصة للتعلق. فحالما نبدأ بالانغماس في الأمور الدنيوية؛ العمل الذي نزاوله، أو البرنامج الذي نشاهده، أو الامتحان الذي نعد له، أو الشخص الذي يشغل بالنا، نجبر على الانفصال عن كل ذلك وتوجيه انتباهنا إلى من هو احق بالتعلق.

الصيام: يتمحور الصيام حول قطع الصلات والارتباطات مع كل الاحتياجات الدنيوية. إنه الامتناع عن الطعام والشراب والعلاقة الحميمة مع الزوج والكلام البذيء. تحكمنا بطبيعتنا البشرية سيمكننا من تنقية أرواحنا وتطهيرها وتمحيصها. أثناء الصيام نجبر على قطع علاقاتنا مع احتياجاتنا المادية وشهواتنا ومسراتنا.

الزكاة: تتمحور الزكاة حول قطع صلتنا بمالنا، وإنفاقه في سبيل الله. وبإنفاقنا للمال، نجبر على كسر تعلقنا بالثروة.

الحج: يعد الحج واحدا من أكثر الأعمال الداعية للانفصال شمولا وعمقا، حيث يترك الحاج خلفه كل شيء في حياته. يتخلى عن أهله ومنزله وراتبه وفراشه الدافئ وحذائه المريح وملابسه الغالية، ويستبدل بهم النوم على الأرض أو في خيمة مزدحمة، وارتداء قطعتين فقط من القماش الزهيد. لا توجد مراكز ودرجات في الحج، فلا يوجد إحرام بماركة (تومي هيلفيجر) ولا خيام بخمسة نجوم؛ فعروض الحج التي تعلن عن الفنادق ذات الخمسة النجوم، تشمل فترة ما قبل الحج أو ما بعده. أما خلال فترة الحج نفسها، فستنام في خيمة في منى، بينما في مزدلفة ستفترش الأرض، وتلتحف السماء.

اعلم أن الله سبحانه وتعالى بعلمه ورحمته الأزليين، لا يأمرنا - فحسب - بقطع صلتنا بالدنيا؛ بل ويخبرنا كيف نقوم بذلك بالضبط. فضلا عن الأركان الخمسة، فإن مجرد الرداء الذي نرتديه يولد لدينا ذلك الشعور بالانفصال، فقد أوصانا النبي صلى الله عليه وسلم بتمييز أنفسنا عن عامة الناس حتى في مظهرنا فبلباس الحجاب

وارتداء الكوفية وإعفاء اللحية، لا يمكنك أن تندمج تماما - حتى لو أردت ذلك. قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (بَدَأَ الإِسْلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كما بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ) (صحيح مسلم)

أن نكون " غرباء " في هذه الدنيا، سيُمكننا من العيش فيها من غير أن نكون جزءً منها، فمن خلال هذا الانفصال نستطيع إخلاء إناء قلبنا وتهيئته لما يغذيه ويمنحه الحياة. بإخلاء قلبنا نعده لغذائه الحقيقي؛ الله سبحانه وتعالى.

من أجل حب الهدية

كلنا يحب الهدايا. نحب النعم التي تزين حياتنا. نحب أطفالنا وأزواجنا وآباءنا وأصدقاءنا. نحب شبابنا وعافيتنا. نحب بيوتنا ومركباتنا وأموالنا وجهلنا. لكن ماذا يحدث عندما تصبح الهدية أكثر من كونها مجرد هدية؟ ماذا يحدث عندما تصبح الرغبة حاجة، وتلقي المعروف أمرًا معوَّلا عليه؟ ماذا يحدث عندما لا تعد الهدية هدية فحسب؟

ما الهدية؟! الهدية شيء لم يأت منا. الهدية شيء يمنح - ويمكن أن يسلب؛ فنحن لسنا المالكين الأصليين للهدية. والهدية أيضا ليست ضرورية لبقائنا، إنها تأتي وتذهب. نحن نريد ونحب تلقي الهدايا، لكنها ليست ضرورية لوجودنا ولا نعول عليها، ولا نحيا لتسلمها، ولن نموت إذا لم نحصل عليها. الهدايا ليست هواءنا ولا طعامنا، ولكننا نحبها. من منا لا يحب الهدية؟ من منا لا يحب تلقي المزيد من الهدايا؟ نحن نسأل الكريم بألا يحرمنا أبدا من هداياه، ومع ذلك فالهدية هي ليست موضع اعتمادنا، ولن نموت بدونها.

تذكر أن هناك موضعين للاحتفاظ بشيء ما: في اليد أو في القلب. أين نحتفظ بالهدية؟ لا تحفظ الهدية في القلب، بل تحفظ في اليد، ولهذا عندما تسترد الهدية، يسبب الفقدان ألمًا لليد، وليس للقلب،

وكل من عاش فترة ليست بالقصيرة في هذه الحياة يعلم أن ألم اليد لا يشبه ألم القلب. فتألم القلب هو لفقدان شيء متعلق به، أو مُدمنٍ عليه أو مشغوف به. ذلك الألم لا يشبه أي ألم آخر. إنه ألم غير عادي. وذلك الألم هو الذي سيجعلنا ندرك أننا فقدنا شيئا قد تعلقنا به. هدية وضعت في الموضع الخاطئ.

ألم اليد هو ألم أيضا، لكنه مختلف. مختلف تماما. ألم اليد أن تفقد شيئا، ولكنه ليس شيئا تعتمد عليه. عندما تنتزع الهدية من اليد - أو لا تعطى أبدا - سنشعر بالألم الإنساني الطبيعي الناتج عن الفقدان. سنغتم! سنبكي! ولكن الألم محله في اليد فقط؛ بينما يبقى قلبنا نابضا وسليمًا. لأن القلب لله سبحانه وتعالى.

والله وحده.

إذا تفحصنا الأشياء التي تسبب لنا أشد الألم والخوف في حياتنا، نستطيع أن نحدد أيا من تلك الهدايا قد حُفظت في المكان الخاطئ. إذا كانت عدم قدرتنا على الزواج، أو العيش مع الشخص الذي نريد، أو إنجاب طفل أو العثور على عمل أو الظهور بشكل معين أو نيل شهادة أو الحصول على مركز معين تشغل بالنا، ففي مثل هذه الحالة تكون بحاجة للقيام بتغيير. نحن بحاجة لتغيير المكان الذي حفظت فيه تلك الهدية؛ نحن بحاجة إلى إزالة الهدية من قلبنا، وإعادتها إلى يدنا، حيث يجب أن تكون.

يمكننا أن نحب هذه الأشياء، فالحب من طبيعة البشر، ومن

طـبيعة البشر الـرغـبة في الـحصول على الهـدايـا التي نـحب. ولـكن مشكلتنا تبدا عندما نضع الهدية في قلبنا، والله سبحانه وتعالي في يدنا. ومن المفارقات العجيبة اعتقادنا بأننا نستطيع العيش بدون الله سبحانه وتعالى، ولكن إذا ما فقدنا الهدية، ننهار ونفقد القدرة على الاستمرار.

نتيجة لذلك، سيكون من السهل علينا وضع الله سبحانه وتعالى جانبا، ولن تستطيع قلوبنا العيش بدون الهدية، بل وسيكون بإمكاننا أن نضع الله سبحانه وتعالى جانبا من أجل الهدية، ولهذا يصبح من السهل علينا تأخير أداء الصلاة أو إضاعتها، ولكن لا تحرمني من مواعيد عملي أو أفلامي أو خروجي أو تسوقي أو درسي أو حفلتي أو ممارستي لكرة السلة. من السهل أن أقترض قروضا ربوية أو أبيع المشروبات الكحولية، ولكن لا تحرمني من هامش ربحي، ووظيفتي المرموقة. لا تحرمني من سيارتي الجديدة، ومنزلي الفخم. من السهل أن أدخل في علاقة غير شرعية، لكن لا تحرمني من الشخص الذي أحب. من السهل خلع أو عدم لبس الحجاب، فقط لا تحرمني من جمالي أو مظهري أو المتقدمين لخطبتي أو صورتي أمام الناس. من السهل أن أضع جانبا الحياء الذي وصفه الله سبحانه وتعالى بالجمال، لكن لا تحرمني من ارتداء البناطيل الضيقة، لأن المجتمع أخبرني بأن هذا هو الجمال.

حدث هذا لأن الهدية في قلبنا، بينما الله سبحانه وتعالى في يدنا ومن السهل وضع ما في يدنا جانبا، وما في قلبنا لا يمكن أن نعيش

بدونه، وسنضحي بأي شيء من أجل امتلاكه. ولكن عاجلًا أم أجلًا، سنحتاج لسؤال أنفسنا: ما الذي نعبده حقا: الهدية أم المُهدي؟ الجمال أم مصدر الجمال وتعريفه؟ المئونة أم الممون؟ الخلق أم الخالق؟

المأساة في اختيارنا هي أننا نقيد أعناقنا بروابط دنيوية، ومن ثم نتساءل لماذا نحس بالاختناق؟ نحن نضع الهواء الحقيقي جانبا ثم نتساءل، لماذا لا نستطيع التنفس؟ نستغني عن طعامنا الوحيد، ثم نشتكي عندما نموت جوعا. وبعد كل هذا نغمد السكين في صدورنا، ثم نبكي، كم هو مؤلم. لكن ما فعلناه، فعلناه لأنفسنا.

يقول سبحانه وتعالى:﴿وَما أَصابَكُم مِن مُصيبَةٍ فَبِما كَسَبَت أَيديكُم وَيَعفو عَن كَثيرٍ﴾ (الشورى: 30).

نعم. ما فعلناه، فعلناه لأنفسنا، ولكن انظر كيف ختمت الآية ﴿وَيَعفو عَن كَثيرٍ﴾. الكلمة المستعملة هنا هي يعفو، ومن صفات الله سبحانه وتعالى العفو. هذه الصفة لا تعني المغفرة والمسامحة فقط، ولكنها تعني المحو التام! فمهما أغمدنا تلك السكين في صدرنا، فإن الله سبحانه وتعالى قادر على شفائنا، وكأنما الطعنة لم تقع! سيجبرها الجبار.

إذا قصدته.

لكن كم هو أحمق ذاك الذي يستبدل العقد بالهواء؟ هو من يقول، " أعطني العقد ويمكنك أن تحرمني من الهواء بعد ذلك،

اختنقني ولكن اضمن لي فقط بأن ألبس العقد عند موتي " المفارقة هنا هي أن العقد نفسه هو الذي يخنقنا. إنها الأشياء التي ارتبطنا بها - الأشياء التي أحببناها أكثر من حبنا الله - هي التي تقتلنا.

بدأت مشكلتنا عندما رأينا الهدية كهواء نتنفسه، بدلا من أن نراها كما هي: مجرد هدية. بهذا العمى نصبح معولين على الهدية، ونضع الهواء الحقيقي جانبا. لذلك عندما يتم استرجاع الهدية أو عدم إعطائها أصلا، سنتصور بأننا لسنا قادرين على الاستمرار، هي كذبة قلناها لأنفسنا حتى صدقناها، فهذه ليست الحقيقة؛ هناك فقدان وحيد لا يمكن تعويضه، هناك سبب واحد يمنع قدرتنا على الاستمرار: أن نفقد الله سبحانه وتعالى في حياتنا. إلا أن المفارقة هي أن الكثير منا قد فقد وجود الله سبحانه وتعالى في حياته، و مع ذلك نعتقد بأننا لانزال على قيد الحياة. اتكالنا المزيف على هداياه كثيرا ما يخدعنا.

الله وحده نجاتنا، وليست هباته. الله داعمنا وهو وحده حاجتنا الضرورية. قال الله سبحانه وتعالى:﴿أَلَيسَ اللَّهُ بِكافٍ عَبدَهُ وَيُخَوِّفونَكَ بِالَّذينَ مِن دونِهِ وَمَن يُضلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِن هادٍ﴾ (الزمر: 36).

كلنا لديه احتياجات، وجميعنا لديه رغبات، لكن معاناتنا الحقيقية تبدأ عندما نحول رغباتنا إلى احتياجات، و عندما نحول احتياجنا الحقيقي الوحيد (الله سبحانه وتعالى) إلى سلعة نظن أنه يمكننا العيش بدونها. معاناتنا الحقيقية تبدأ عندما نفقد القدرة على

التمييز بين الوسيلة والغاية. الله سبحانه وتعالى وحده هو الغاية، وكل ما عداه وسيلة. ستبدأ معاناتنا في اللحظة التي نحول فيها نظرنا عن الهدف ونضيع في الوسائل. في الواقع، إن الهدف الحقيقي من الهدية نفسها هو جذبنا إلى الله سبحانه وتعالى، فحتى الهدية هي مجرد وسيلة. مثلا، ألم يخبرنا الرسول صلى الله عليه وسلم بأن الزواج هو نصف الدين؟ لماذا؟ إذا ما تم تطبيقه بشكل صحيح، فإن هناك أشياء قليلة أخرى في هذه الحياة يمكن أن يكون لها مثل هذا التأثير الشامل للزواج على تنمية شخصية الفرد. يمكنك أن تقرأ ما شئت عن سجايا مثل الصبر والشكر والرحمة والتواضع والكرم ونكران الذات والإيثار، ولكنك لن تنمي هذه السجايا لديك، إلا إذا وضعت في موقف تختبر فيه هذه السجايا.

هدايا مثل الزواج ستكون وسائل للتقرب إلى الله سبحانه وتعالى، مادامت بقيت مجرد وسائل، وليست غايات. هبات الله ستبقى وسائل للوصول إليه مادامت وضعت في اليد وليس في القلب. تذكر أن أي شيء أسكنته قلبك سيتحكم بك، وسيصبح ما تكافح من أجله، وستكون مستعدا للتضحية بأي شيء لامتلاكه والاحتفاظ به، وسيصبح ما تتكل عليه أولا وأخيرا. لذا ينبغي أن يكون ذاك الشيء أبديا لا يكل ولا ينكسر، ومن ثم يجب أن يكون شيئا لا يفارقنا أبدا. واحد فقط بهذه الصفات: الخالق.

أمان على سطح

كلنا عاش لحظات مؤثرة، بالنسبة لي عشت لحظة. من تلك اللحظات، عندما كنت واقفة على سطح المسجد الحرام؛ فوقي السماء وأسفل مني أروع منظر للكعبة، التي هي إشارة واضحة إلى الله سبحانه وتعالى، ولهذه الحياة، والحياة الأخرى. كنت محاطة بحشود متزاحمة - لا تجتمع في أي مكان على الأرض - ولكن بالنسبة لي شعرت بأني أقف وحيدة مع الله سبحانه وتعالى.

جلبت معي إلى ذلك السطح الكثير من الحزن والحيرة والشك؛ قدِمت بكثير من الضعف والهشاشة والألم، واقفة على مفترق الطرق في حياتي، حاملة معي خوفًا مما يمكن أن يأتي، وأملًا فيما يمكن أن يكون. عندما كنت واقفة على ذلك السطح تذكرت قصة موسى عليه السلام وهو واقف على ساحل البحر الأحمر. عيناه لم تريا سوى جدار من الماء يحبسه مع اقتراب الجيش، أما بصيرته فلم تر إلا الله سبحانه وتعالى، وطريق نجاة مضمون، كأنما قد مر به مسبقًا. في حين كانت أصوات قومه، مجردة من الثقة والأمل، وقد تملكها الجزع خوفًا من أن يدركهم فرعون وجيشه وأما موسى عليه السلام فلم يجزع.

حينما كنت واقفة هناك سمعت أصواتًا بعيدة، تحذرني مما

سـيأتي، لـكن مـا سـمعه قلبي كـان فـقط: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَـيَهديـنِ﴾ (الشعراء: 62).

لكن لا يمكننا الرؤية عبر أوهام المشقة والحيرة والألم التي تحيط بنا إلا إذا سمحنا لقلبنا بالتركيز. أساس الإسلام هو التوحيد، ولكن التوحيد لا ينحصر فقط في قول لا إله إلا الله، إنه أعمق من ذلك بكثير؛ إنه توحيد الغرض، والخوف والعبادة والحب المطلق الله تعالى. هو توحيد الرؤية والتركيز. هو توجيه نظرك إلى نقطة واحدة، وأن تدع كل الأشياء الأخرى تقع في مكانها المخصص.

نجد هذا المفهوم في واحد من أجمل أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، حيث قال عليه الصلاة والسلام: (مَن كانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللّهُ غِناهُ في قَلبِهِ وجَمَعَ لَهُ شَملَهُ وأَتَتهُ الدُّنيا وهِيَ راغِمَةٌ ومَن كانَتِ الدُّنيا هَمَّهُ جَعَلَ اللّهُ فَقرَهُ بَينَ عَينَيهِ وفَرَّقَ عَلَيهِ شَملَهُ ولَم يَأتِهِ مِنَ الدُّنيا إلاّ ما قُدِّرَ لَهُ). (سنن الترمذي)

إذا ما سبق لك رؤية صورة لِ " العين السحرية " فإنه يمكنك أن ترى صورة مجازية رائعة لهذه الحقيقة. عند النظرة الأولى لا يظهر من الصورة إلا مجموعة من الأشكال بغير ترتيب أو غرض، ولكن إذا ما بدأت بتقريب الصورة إلى وجهك، وتركيز عينك على نقطة وحيدة متفردة، فإنه حالما تقوم بتحريك الصورة تدريجيا بعيدا عن وجهك، سرعان ما تتضح الصورة. لكن حالما تزيح نظرك عن نقطة التركيز المتفردة، تختفي الصورة، ومرة أخرى تصبح بحرا من الأشكال.

بالطريقة نفسها، كلما ركزنا على الدنيا، تبعثرت أمورنا، وكلما ركضنا وراء الدنيا، هربت منا؛ المفارقة أنه كلما لاحقنا الغنى، شعرنا بالفقر. إذا كان المال هو محور اهتمامنا، فسنجد أنه مهما ملكت من مال فستخشى دائما فقدانه. هذا الولع بالمال هو الفقر بعينه، ولهذا وصف الرسول صلى الله عليه وسلم هذا النوع من الناس " بأن الفقر دائما بين أعينهم " هذا كل ما يرون، مهما ملكوا لا تتحقق لديهم القناعة، ويطمعون في الأكثر ويخشون الفقدان. لكن الذين يركزون على الله سبحانه وتعالى تُقبل عليهم الدنيا، ويضع الله القناعة في قلوبهم، حتى وإن كانوا يملكون القليل منها، فهم يشعرون بالغنى، ولديهم رغبة أكثر في الإنفاق من هذا الرزق.

عندما يشعر هؤلاء الناس بأنهم أسرى للحياة، وللصعوبات المادية والألم والوحدة والخوف وانكسار القلب والحزن، فكل ما عليهم فعله هو التوجه إلى الله سبحانه وتعالى وهو تعالى سيجعل لهم مخرجا من كل ضيق.

اعلم أن هذه ليست مجرد نظرية لجلب السعادة والتفاؤل، لكنها وعد، وعد من الله سبحانه وتعالى الذي قال في القرآن الكريم:﴿فَإِذا بَلَغنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمسِكوهُنَّ بِمَعروفٍ أَو فارِقوهُنَّ بِمَعروفٍ وَأَشهِدوا ذَوَي عَدلٍ مِنكُم وَأَقيمُوا الشَّهادَةَ لِلَّهِ ذلِكُم يوعَظُ بِهِ مَن كانَ يُؤمِنُ بِاللَّهِ وَاليَومِ الآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجعَل لَهُ مَخرَجًا وَيَرزُقهُ مِن حَيثُ لا يَحتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّل عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسبُهُ إِنَّ اللَّهَ بالِغُ أَمرِهِ قَد جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيءٍ قَدرًا﴾ (الطلاق: 3 - 2).

الله سبحانه وتعالى سيكفيهم، فالله سبحانه وتعالى هو الكافي. وبالتالي لن يكون هناك سوى السلام لهؤلاء الذين يجعلون الله سبحانه وتعالى همهم الأول، فكل ما يحدث لهم في هذه الحياة حسن ومقبول؛ لأنه إرادة الله سبحانه وتعالى. تصور أن كل ما في حياتك حسن. هذه هي حالة هذا الصنف من المؤمنين، كما قال صلى الله عليه وسلم: (عَجَباً لأمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ: إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خيْراً لَهُ) (صحيح مسلم)

ومن ثم في قلب هذا الصنف من المؤمنين نوع من الفردوس، وهو الفردوس الذي تكلم عنه ابن تيمية رحمه الله عندما قال: " إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة ".

وفي هذه الجنة، السلام التام ليس حالة مؤقتة، بل حالة أبدية.

محيط الدنيا

ذهبت البارحة إلى الساحل. عندما جلست أراقب أمواج كاليفورنيا الضخمة، أدركت شيئا غريبا. المحيط يخلب الألباب بجماله، على الرغم من شدة جماله، فإنه كذلك مميت. نفس الأمواج الخلابة التي نستمتع بها على الساحل ستقتلنا إذا دخلناها. الماء، تلك المادة الضرورية لاستمرار الحياة، قادرة على أن تنهي الحياة بالغرق. والمحيط نفسه الذي يحمل السفن، قادر على تحطيم تلك السفن وتحويلها إلى قطع صغيرة.

هذه هي الحياة الدنيا، تمامًا مثل المحيط، وقلوبنا السفن؛ نستطيع أن نستخدم المحيط لسد حاجاتنا، ووسيلة للوصول إلى غايتنا النهائية. لكن المحيط هو فقط ذلك: وسيلة. هو وسيلة للحصول على طعام البحر، وهو وسيلة للسفر، ووسيلة للوصول إلى هدف أسمى، ولكنه مجرد طريق نسلكه، ولا نفكر أبدا في الإقامة فيه. تخيل إذا أصبح المحيط غايتنا وليس وسيلتنا فقط.

في نهاية الأمر سنغرق.

مادامت مياه المحيط باقية خارج السفينة، ستبقى السفينة عائمة وتحت السيطرة، ولكن ما الذي سيحدث إذا ما تسرب الماء إلى السفينة؟ ماذا سيحدث عندما تكون الدنيا ليست مجرد ماء خارج

قلوبنا، وعندما لا تكون الدنيا مجرد وسيلة؟ ماذا سيحدث عندما تدخل الدنيا في قلوبنا؟

حينها يغرق القارب.

حينها سيؤخذ القلب رهينة ويصبح عبدًا. حينها تبدأ الدنيا - التي كانت تحت سيطرتنا يوما - بالتحكم بنا. عندما تقتحم مياه المحيط السفينة وتطغى عليها، تفقد السفينة التحكم، ويصبح القارب تحت رحمة أمواج المحيط.

لكي نبقى عائمين، ينبغي أن ننظر إلى الدنيا بالطريقة نفسها؛ لأن الله سبحانه وتعالى أخبرنا:﴿إِنَّ فِي خَلقِ السَّماواتِ وَالأَرضِ وَاختِلافِ اللَّيلِ وَالنَّهارِ لَآياتٍ لِأُولِي الأَلبابِ﴾ (آل عمران: 190). نحن نحيا في هذه الدنيا، وقد خُلقت لنا الدنيا لنستخدمها، فالزهد في الدنيا لا يعني أن نقطع تواصلنا مع العالم، بل علمنا الرسول صلى الله عليه وسلم ما يجب علينا القيام به. يقول أنس رضي الله عنه: إن (ثَلَاثَةُ رَهْط جَاءُوا إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُونَ عَنْ عُبَادَةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا فَقَالُوا وَأَيْنَ نَحْنُ مِنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ غَفَرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ. قَالَ أَحَدُهُمْ أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا وَقَالَ اخرُ أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أُفْطِرَ. وَقَالَ اخرُ أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا. فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟! أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكنِي اصومِ وَافطَرّ، وَأَصْلِي وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنْ) (متفق عليه).

لم ينسحب الرسول صلى الله عليه وسلم من الدنيا كي ينقطع عنها كليا، بل كان معنى الانقطاع لديه أعمق من بكثير، كان انقطاعا قلبيا، وكان ارتباطه الوثيق هو بالله سبحانه وتعالى وحده فقط، واللجوء إليه وحده، لانه فهم حقا كلام الله سبحانه وتعالى:﴿وَما هذِهِ الحَياةُ الدُّنيا إِلّا لَهوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوانُ لَو كانوا يَعلَمونَ﴾ (العنكبوت: 64)

الزهد لا يعني بأننا لا نستطيع امتلاك أشياء في هذه الدنيا، فالكثير من الصحابة كانوا أغنياء. بل الزهد هو أن ننظر إلى الدنيا ونتعامل معها كما هي في الحقيقة: وسيلة فقط.

الزهد هو عندما تبقى الدنيا في يدنا - لا في قلوبنا - كما عبر عن ذلك علي رضي الله عنه بكلمات جميلة، حيث قال: (ليس الزهد ألا تملك شيئا، ولكن الزهد ألا يملكك شيء).

مثلما يحدث عندما تدخل مياه المحيط إلى القارب، في اللحظة التي تدخل فيها الدنيا قلوبنا، فإننا نغرق. لم يقدر للمحيط أن يدخل السفينة، قدر له أن يكون وسيلة تبقى خارجه. الدنيا كذلك لم يقدر لها أن تدخل قلوبنا، إنها وسيلة يجب الا تدخل قلوبنا أو تتحكم فينا، ولهذا السبب وصفها الله سبحانه وتعالى مرارا في القرآن الكريم بالمتاع. المتاع قد يعني أنها " مورد للسعادة الدنيوية المؤقتة ". إنها مورد. إنها أداة. إنها الطريق وليست الغاية.

هذا هو المفهوم الذي تحدث عنه الرسول صلى الله عليه وسلم

ببلاغة عندما قال: (مَا لي وَللدُّنْيَا؟ مَا أَنَا في الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا) (أحمد، الترمذي)

فكر للحظة بالمعنى المجازي للمسافر. ماذا سيحدث عندما تعلم بأنك مسافر، أو تعلم أن بقاءك مؤقت؟ عندما تمر بمدينة وتقيم فيها لليلة واحدة، كيف سيكون تعلقك بها؟ إذا علمت أن إقامتك فيها مؤقتة، ستكون مستعدا بأن تسكن في فندق رخيص، ولكن هل ستفضل الإقامة هناك؟ ربما لا. تخيل بأن رئيس الشركة أرسلك إلى مدينة جديدة لتعمل على مشروع محدد، وتخيل بأنه لم يخبرك متى ينتهي المشروع بالضبط، ولكنك تدرك أنك سترجع إلى بيتك يوما ما، كيف سيكون حالك في تلك المدينة؟ هل ستستثمر أموالك في عقارات ضخمة، وتنفق كل مدخراتك في شراء أثاث ثمين، وسيارات فاخرة؟ على الأرجح لا. وحتى عند التسوق، هل ستشتري كميات كبيرة من الطعام وأشياء أخرى سريعة التلف؟ الجواب لا. على الأغلب ستتردد في شراء ما هو أكثر مما تحتاجه لبضع أيام؛ لأن رئيسك قد يدعوك في أي يوم للعودة.

هذه هي عقلية المسافر، هناك انقطاع طبيعي يأتي لحظة إدراك أن شيئا ما مؤقت فقط، هذا ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم في حديثه. حيث أدرك خطر التشبث بهذه الدنيا. في الواقع، لم يخش شيئا علينا أكثر من ذلك.

قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (وَاللهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ، كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ

قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ) (متفق عليه).

أدرك الرسول المبارك صلى الله عليه وسلم حقيقة هذه الدنيا. فهم عليه السلام ماذا يعني وجودنا في الدنيا، دون أن نكون منها. أبحر عليه السلام في المحيط نفسه الذي نبحر فيه جميعا، ولكن سفينته علمت جيدا: من أين أنت؟ وإلى اين ستذهب؟ ظل قاربه جافًا، علم أن المحيط ذاته الذي يتلألأ في ضوء الشمس، سيصبح مقبرة للسفن التي تسمح له بالدخول إليها.

استرجع قلبك

ليس هناك من يرغب في السقوط، وقلة من الناس تختار الغرق، ولـكن في خـضم الصراع في مـحيط هـذه الـحياة، أحـيانـا يـكون مـن الـصعب جـدا مـنع الـدنـيا مـن الـدخـول. أحـيانـا يقتحـمنا الـمحيط، وتتسرب الدنيا إلى قلوبنا.

ومثل الماء الذي يحطم القارب، عندما تدخل الدنيا، تحطم قلبنا. تحطم القارب. مؤخرا، ذكرت بما يبدو عليه مظهر القارب المحطم، وما الذي يحدث عندما نسمح لكل شيء بالدخول. تذكرت ذلك لأني رأيـت مـن هي مثلي تـمامـا، مـن وقـعت في حـب هـذه الـحياة أكثر مـما ينبغي، وسعت لإشباع نفسها بالمخلوق، فحطم محيط الدنيا قاربها كما حطم قاربي، فوقعت خارجا في الماء. لكنها بقيت طويلا في القاع، ولم تعرف كيف ترجع إلى السطح، وما الذي تتمسك به.

فغرقت.

إذا سـمحت للدنـيا بأن تـملك قلبك؛ فـمثل الـمحيط الـذي يـتملك القارب، ستستحوذ عليك، ستغوص إلى أعماق البحر، وستلمس قعر المحيط، وستشعر وكأنك في أدنى حالة، مقيدا بذنوبك وحبك لهذه الـحياة. سـتشعر بـالانـكسار، وتـكتنفك الـظلمات، ذلـك هـو الشيء المذهل في قاع المحيط، لا يصل إليه أي نور.

ومع ذلك، هذا المكان المظلم ليس هو النهاية، تذكر أن أشد ساعات الليل ظلاما هي التي تسبق الفجر، وما دام قلبك نابضا. فهذا ليس موته. لا يتعين عليك أن تموت هنا، أحيانا يكون قاع المحيط محطة توقف فقط في الرحلة. وعندما تكون في أدنى حالة، ستواجه خيارين: إما أن تبقى في القاع حتى تغرق، وإما أن تجمع اللؤلؤ وتصعد إلى الأعلى، وقد زدت قوة بالسباحة، وغنى بالمجوهرات.

سيرفعك الله سبحانه وتعالى إذا سعيت إليه، ويستبدل بظلمات المحيط نور شمسه. هو قادر على أن يحول ما كان سابقًا مصدر ضعفك الأعظم إلى قوتك العظمى، وإلى وسيلة للنمو والتطهير والتوبة. اعلم أن التغيير أحيانا يبدأ بسقوط، فلا تلعن السقوط. في القاع، حيث يقيم التواضع، خذه، وتعلمه، واستنشقه. ثم عد أقوى وأكثر تواضعًا، وأكثر إدراكا لاحتياجك إليه. عد بعد رؤيتك لعدمك ولعظمة الله سبحانه وتعالى. اعلم أنك إذا رأيت هذه الحقيقة، فقد رأيت الكثير. فالمخدوع حقا هو من يرى ذاته نفسها، ولا يرى الله سبحانه وتعالى. محروم من لا يشاهد احتياجه المُلحّ الله سبحانه وتعالى، معتمدًا على ما يملك من وسائل، متناسيا أن تلك الوسائل وروحه نفسها وكل ما في الوجود هي مخلوقاته سبحانه وتعالى.

اقصد الله كي يرفعك، فإذا رفعك، فسيصلح سفينتك، وسيجبر القلب الذي ظننت أنه تلف إلى الأبد؛ ما تحطم سيرجع كاملا مرة أخرى. اعلم أنه وحده سبحانه هو القادر على فعل ذلك. اقصده.

وعندما ينقذك، التمس الصفح عن السقطة، اشعر بالندم عليها،

ولكن لا تيئس، كما قال ابن القيم (رحمه الله) " فرح إبليس بنزول آدم من الجنة، وما علم أن هبوط الغائص في اللجة خلف الدر صعود ".

هناك شيء فعال ومدهش في التوبة، والرجوع إلى الله سبحانه وتعالى. أُخبرنا بأنها صقل للقلب. الشيء المدهش عن الصقل، هو أنه ليس مجرد تنظيف، بل إنه يجعل الشيء الذي يصقل أكثر بريقا مما كان عليه قبل أن يتسخ. إذا رجعت إلى الله سبحانه وتعالى ملتمسًا صفحه، وجعلت الله محور حياتك وقلبك، فستكون لديك إمكانية لأن تكون أكثر غنى، كما لو كنت لم تسقط أبدا. أحيانا، السقوط ثم النهوض ثانية يكسبك حكمة وتواضعا لا يمكنك اكتسابها بطريقة أخرى. كتب ابن القيم (رحمه الله): (إن العبد ليعمل الذنب يدخل به الجنة، ويعمل الحسنة يدخل بها النار قالوا: كيف؟ قال: يعمل الذنب فلا يزال نصب عينيه منه مشفقا وجلًا باكيا نادمًا مستحييا من ربه تعالى ناكس الرأس بين يديه منكسر القلب له، فيكون ذلك الذنب أنفع له من طاعات كثيرة بما ترتب عليه من هذه الأمور التي بها سعادة العبد وفلاحه حتى يكون ذلك الذنب سبب دخوله الجنة، ويفعل الحسنة فلا يزال يمن بها على ربه ويتكبر بها ويري ويعجب بها ويستطيل بها ويقول فعلت وفعلت فيورثه من العجب والكبر والفخر والاستطالة ما يكون سبب هلاكه).

يذكرنا الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم بألا نيئس أبدا. يقول سبحانه وتعالى:﴿قُل يا عِبادِيَ الَّذينَ أَسرَفوا عَلى أَنفُسِهِم لا تَقنَطوا

مِن رَحمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغفِرُ الذُّنوبَ جَميعًا إِنَّهُ هُوَ الغَفورُ الرَّحيمُ﴾ (الزمر: 53).

هذه دعوة لكل من أصبح مستعبدا لطغيان النفس، وسجينًا في زنزانة النفس والشهوات. إنها دعوة لكل من دخل محيط الدنيا وغاص في أعاقه، وأصبح أسيرا لأمواجه العاتية. ارقَ، ارقَ إلى الهواء، إلى العالم الحقيقي فوق سجن المحيط، ارقَ إلى حريتك، ارقَ وعد إلى الحياة. دع موت روحك وراءك، فقلبك لايزال قادرا على الحياة، وسيكون أكثر قوة ونقاء، مما كان عليه من قبل. ألا يجعل صقل التوبة القلب أكثر جمالا مما كان عليه؟ ارفع الستار الذي نسجته من ذنوبك، ارفع الستار بينك وبين الحياة، بينك وبين الحرية، بينك وبين النور، بينك وبين الله سبحانه وتعالى. ارفع الستار وارق، عد إلى نفسك. عد إلى بدايتك. عد إلى موطنك. اعلم أن الأبواب الأخرى عندما تغلق جميعها في وجهك، فإن هناك واحدًا سيبقى دائمًا مفتوحًا، دائمًا. اقصد ذلك الباب. اقصده، وسيقودك عبر أمواج المحيط القاسي إلى رحمة الشمس.

هذه الدنيا لا تستطيع أن تكسرك - إلا إذا أذنت لها بذلك. ولا تستطيع أن تملكك إلا إذا سلمتها المفاتيح - إلا إذا أعطيتها قلبك. ومن ثم، إذا سلمت تلك المفاتيح للدنيا لوهلة، استردها. إنها ليست النهاية. لا يتعين عليك أن تموت هنا، استرجع قلبك وضعه مع مالكه الحقيقي: الله سبحانه وتعالى.

الحب

الهروب من أسوأ سجن

عندما تعرفت سارة على أحمد، أحست فورا بأنه كل ماكانت تحلم به، لقاؤه كان مثل مراقبة الشروق وسط عاصفة ثلجية. أذاب دفؤه البرد. لكن سرعان ما تحول الإعجاب إلى عبادة! قبل أن تدرك ما حصل، أصبحت سارة سجينة، أصبحت سجينة لرغباتها وتعلقها بمن عشقت، لم تعد ترى أي شيء سواه، أينا نظرت. أصبحت أكبر مخاوفها في حياتها هي أن تكون سببا في استيائه. كان المحور الذي تدور حوله مشاعرها، وبدونه، لم يكن للسعادة، معنى. كان فراقه أشبه بسلخ روحها من جسدها. قلبها كان ينبض شغفا برؤية وجهه، ولا شيء كان أقرب إليها منه. أصبح بالنسبة لها كالدم الذي يجري في عروقها. ألم العيش بدونه لا يحتمل، لأنها لم تجد أي سعادة في أي موضع لم يكن فيه.

اعتقدت سارة أنها وقعت في الحب.

مرت سارة بالكثير في حياتها. تركها والدها عندما كانت في مرحلة المراهقة، ثم هربت من البيت عندما كانت في السادسة عشرة من عمرها، ودخلت في صراع مع الإدمان على المخدرات والكحول. وقضت كذلك وقتًا في السجن. لكن كل هذه الآلام مجتمعة لن تعادل الألم الذي ستشعر به داخل هذا السجن الجديد الذي صنعته

لنفسها. أصبحت أسيرة لشهواتها وهذا ما عبر عنه ابن تيمية (رحمه الله) عندما قال: (المحبوس من حبس قلبه. عن ربه تعالى والمأسور من أسره هواه). (ابن القيم، الوابل الصيب من الكلم الطيب، ص69).

كانت عبوديتها لأحمد كربًا أشد من الكرب الذي مرت به في مراحل حياتها السابقة. أنهكها، وفي الوقت نفسه تركها خاوية. مثل الرجل الظمآن في وسط الصحراء، كانت سارة تلاحق سرابا بشغف، ولكن ماكان أسوأ من ذلك هو عاقبة وضع شيء في المكان الذي لا ينبغي إلا الله وحده.

قصة سارة عميقة جدا لأنها تبين حقيقة الوجود الراسخة. كوننا بشرا، خلقنا بفطرة معينة، وهذه الفطرة تمكننا من التعرف على وحدانية الله، وتطبيق هذه الحقيقة في حياتنا. لا توجد مصيبة أو خسران أو أي شيء يمكن أن يسبب لنا ألما، أكثر من وضع شيء مساوٍ الله في حياتنا أو في قلوبنا. لا يمكن لمأساة دنيوية أن تدمر روح الإنسان كما يفعل الشرك؛ عندما تجعل الروح تحب وتخاف وتخضع لشيء كما لا ينبغي إلا وحده، فإنك تكبل روحك في سجن ليس من الفطرة أن تكون فيه. ولكي ترى صدق هذه الحقيقة عليك فقط أن تنظر إلى ما يحدث عندما يفقد الشخص معبوده.

في يوم 22 من شهر يوليو، سنة 2010، نشرت مجلة التايمز الهندية أن امرأة في الأربعين من عمرها انتحرت في منزلها بإشعال النار على نفسها بعد صب الكيروسين على جسدها. قالت الشرطة: يظهر

أن الانتحار كان " إجراءً نهائيًا بسبب عدم تمكنها من الإنجاب بعد تسعة عشر عاما من الزواج ".

وقبل بضعة أيام من هذه الحادثة، وتحديدًا في يوم 16 من شهر يوليو أعلنت الشرطة الهندية أن رجلا في الثانية والعشرين من عمره انتحر لأن عشيقته تخلت عنه. قد يتعاطف الكثير من الناس مع ألم هؤلاء الأشخاص، وقد يصاب الكثير بالإحباط إذا ما تعرضوا لمواقف مماثلة. لكن إذا كان الحصول على طفل أو شخص معين في حياتنا هو سبب وجودنا، فهناك خطأ جسيم. إذا أصبح شيء فان ومؤقت ومتلاشٍ هو محور حياتنا وغايتنا، والسبب الذي نعيش من أجله، سنتحطم حتمًا. الأشياء الناقصة، التي تجعلها محور اهتمامنا - وفق تعريفها - تتلاشى، أو تخذلنا أو تموت. وحالما يحصل ذلك، سننكسر. ماذا سيحدث عندما تتسلق جبلًا وتتعلق بغصن ليحمل وزنك كله ؟ قوانين الفيزياء تخبرنا بأن ذلك الغصن الذي لم يخلق لحمل مثل هذا الوزن سينكسر، كما تخبرنا قوانين الجاذبية بأنك ستسقط حتمًا. هذه ليست نظرية وإنما هي حقيقة من حقائق هذا العالم المادي، وهي كذلك حقيقة من حقائق العالم الروحي، وقد أخبرنا القرآن الكريم عن هذه الحقيقة:

﴿يا أَيُّهَا النّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعوا لَهُ إِنَّ الَّذينَ تَدعونَ مِن دونِ اللَّهِ لَن يَخلُقوا ذُبابًا وَلَوِ اجتَمَعوا لَهُ وَإِن يَسلُبهُمُ الذُّبابُ شَيئًا لا يَستَنقِذوهُ مِنهُ ضَعُفَ الطّالِبُ وَالمَطلوبُ﴾ (الحج: 73)

إن الرسالة التي تجلت في هذه الآية عميقة حقًا، فكلما ركضت

خلف شيء ضعيف أو واهن، أو بحثت عنه أو التمست العون فيه، فـإن ذلـك الشيء - والـذي هـو بـحكم الـتعريـف: أي شيء غير الله سبحانه وتعالى سيجعلك ضعيفًا أو واهنًا. حتى لو وجدت ما تبحث عنه، فلن يكون ذلك كافيا، إذ سرعان ما ستبدأ بالبحث عن شيء آخر، ولن تصل أبدا إلى القناعة والراحة الحقيقية. لهذا السبب نحن نعيش في عالم دائم التبديل والتحديث. هاتفك وسيارتك وحاسوبك وزوجتك وزوجك، من الممكن أن يستبدلوا بما هو أحدث، وبطراز أفضل.

أنه هناك تحرر من هذه العبودية. عندما تضع كل ثقلك على من لا يهتز ولا ينكسر ولا ينتهي، فإنك لن تسقط، ولن تنكسر. يوضح الله سبحانه وتعالى هذه الحقيقة في القرآن عندما يقول:﴿لا إِكراهَ فِي الدّينِ قَد تَبَيَّنَ الرُّشدُ مِنَ الغَيِّ فَمَن يَكفُر بِالطّاغوتِ وَيُؤمِن بِاللَّهِ فَقَدِ استَمسَكَ بِالعُروَةِ الوُثقى لَا انفِصامَ لَها وَاللَّهُ سَميعٌ عَليمٌ﴾ (البقرة: 256)

عندما يكون من تتمسك به قويا، تصبح قويا كذلك، ومع هذه القوة، تأتي الحرية الحقيقية، وعن تلك الحرية يقول ابن تيمية (رحمه الله): (ماذا يصنع أعدائي بي؟ جنتي في صدري، لا يستطيعون أن ينزعوها مني، فإن نفوني فنفيي سياحة، وإن حبسوني فحبسي خلوة، وإن قتلوني فقتلي شهادة) (ابن القيم، الوابل الصيب من الكلم الطيب، ص69).

يرى ابن تيمية أن الهروب من سجن هذه الحياة لا يكون إلا

بجعل من لا نقص فيه، ولا نهاية له أو ضعف، معبوده الوحيد. لقد وصف قلب مؤمن حر. إنه قلب محرر من أغلال العبودية في هذه الحياة، وكل شيء فيها. إنه قلب يدرك أن المأساة الحقيقية هي فقط في التخلي عن التوحيد، وأن البلاء المستعصي هو عبادة أي شخص، أو أي شيء غير الذي يستحق العبادة. إنه القلب الذي يدرك أن السجن الحقيقي هو سجن الاستعاضة عن الله سبحانه وتعالى بشيء آخر. شهواتك أو نفسك أو ثروتك أو وظيفتك أو زوجك أو أطفالك أو حبك للحياة، هذه المعبودات المزيفة، ستأسرك وتستعبدك إذا جعلتها هدفك الأسمى. سيكون ألم هذه العبودية أعظم وأعمق، وأدوم من أي ألم آخر يمكن أن يصيبك من مآسي هذه الحياة.

من الضروري جدا استيعاب تجربة النبي يونس عليه السلام عندما أصبح في بطن الحوت. كانت لديه وسيلة وحيدة للخروج: التوجه تماما إلى الله سبحانه وتعالى، والتيقن بوحدانية الله سبحانه وتعالى، وإدراكه لضعفه البشري. دعاؤه عليه السلام جسد هذه الحقيقة:﴿لا إِلهَ إِلّا أَنتَ سُبحانَكَ إِنّي كُنتُ مِنَ الظّالِمينَ﴾ (الأنبياء: 87)

الكثير منا كذلك سجناء في بطن حوت شهواتنا ومعبوداتنا. إنها نفوسنا التي نصبح عبيدًا لها، وهذه العبودية هي نتيجة لوضعنا أي شيء حيث يجب أن يكون الله سبحانه وتعالى، في قلوبنا. بفعلنا هذا نخلق أقسى السجون وأكثرها إيلامًا؛ لأن السجن الدنيوي يمكنه أن يسلب منا فقط ما هو مؤقت وغير كامل بطبيعته؛ بينا يسلب هذا السجن الروحي ما هو مطلق، أبدي وكامل: الله سبحانه وتعالى وصلتنا به.

هل ما أشعر به حب؟

" الحب مرض نفسي خطير " على الأقل هذا ما وصفه به (بلاتو). وبينما قد يرى من وقع في الحب شيئا من الحقيقة في هذه العبارة، يكن الخطأ الجسيم الذي يُرتكب هنا، هو أن الحب ليس مرضا نفسيا، إنما هي الشهوة.

إذا كان المقصود بـ" وقوعنا في الحب " هو تبعثر حياتنا، وجعلنا منكسرين وبؤساء ومنهكين تماما، وغير قادرين على الاستمرار في مزاولة مهامنا، ومستعدين للتضحية بأي شيء، فليس هذا الحب. على الرغم مما تعلمناه في ثقافتنا الشائعة، ليس من المفترض أن يجعلنا الحب الحقيقي مثل مدمني المخدرات. ومن ثم خلافًا لما نشأنا عليه من متابعتنا للأفلام، هذا النوع من الهواجس المتلفة المتسلطة ليست هي الحب، إنها تأخذ اسمًا مختلفًا - إنها الهوى - وهي الكلمة التي استخدمت في القرآن للإشارة إلى الرغبات والشهوات الدنيئة الفارغة. يصف الله سبحانه وتعالى الأناس الذين اتبعوا هذه الشهوات على عمى بأنهم الأكثر ضلالا:﴿فَإِن لَم يَستَجيبوا لَكَ فَاعلَم أَنَّما يَتَّبِعونَ أَهواءَهُم وَمَن أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَيرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهدِي القَومَ الظّالِمينَ﴾ (القصص: 50)

اختيارنا للاستسلام لما يمليه عليه هوانا بدل الاسترشاد بهدي الله

سبحانه وتعالي، يعني اختيارنا لأن يكون هوانا هو معبودنا. عندما يكون حبنا لما نشتهيه أقوى من حبنا الله سبحانه وتعالى، نكون قد جعلنا ما نشتهيه معبودنا. قال تعالى:﴿وَمِنَ النّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دونِ اللَّهِ أَندادًا يُحِبّونَهُم كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذينَ آمَنوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ (البقرة: 165)

إذا كان حبنا لشيء ما يجعلنا مستعدين للتخلي عن أهلنا وكرامتنا، واحترامنا لذاتنا، وأجسادنا وعقولنا، وراحة بالنا وديننا، وحتى إلهنا الذي أوجدنا من العدم، فاعلم بأننا لسنا " واقعين في الحب " بل نحن عبيد.

لهذا الصنف من الناس يقول الله تعالى:﴿أَفَرَأَيتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَواهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلى عِلمٍ وَخَتَمَ عَلى سَمعِهِ وَقَلبِهِ وَجَعَلَ عَلى بَصَرِهِ غِشاوَةً﴾ (الجاثية: 23)

تخيل خطورة أن يملك شخص ما بصرًا وسمعا وقلبا، كله مختوم. ليست في الهوى سعادة، بل إنها سجن. إنها عبودية العقل، والجسد، والروح. إنها إدمان وعبادة. تستطيع العثور على أمثلة جميلة لهذه الحقيقة في العديد من الكتابات الأدبية. ففي رواية (آمال عظيمة) لكاتبها ديكنز، يمثل (بيب) هذه الحالة عندما يصف شغفه بـ (ستيلا)، قائلا: " لسوء حظي لقد علمت بأنني في كثير من الأحيان - إن لم يكن دائما - أحببتها على عكس ما يقتضيه المنطق، والوعد، والسلام، والأمل والسعادة وضد كل الأسباب التي تمنعني من ذلك ".

شخصية الآنسة (هافيشام) التي جسدها ديكنز تصف هذا الحب مضيفة : " سأخبرك... ما هو الحب الحقيقي. إنه إخلاص أعمى، وإذلال ذاتي كامل، وخضوع تام، وثقة وإيمان على عكس ما تعتقد به عن نفسك والعالم كله، والتنازل الكامل عن قلبك وروحك للضارب، كما فعلت أنا ".

ما تصفه الآنسة (هافيشام) هو بالفعل أمر حقيقي، ولكنه ليس الحب الحقيقي. إنه الهوى. الحب الحقيقي، كما يريده الله سبحانه وتعالى ليس مرضا أو إدمانا، إنه مودة ورحمة. يقول الله تعالى في كتابه: ﴿وَمِن آياتِهِ أَن خَلَقَ لَكُم مِن أَنفُسِكُم أَزواجًا لِتَسكُنوا إِلَيها وَجَعَلَ بَينَكُم مَوَدَّةً وَرَحمَةً إِنَّ في ذلِكَ لَآياتٍ لِقَومٍ يَتَفَكَّرونَ﴾ (الروم: 21)

الحب الحقيقي يحدث سكونًا، وليس لوعة. الحب الحقيقي يتيح لك أن تكون بسلام مع ربك. ولهذا يقول الله تعالى:﴿لِتَسكُنوا إِلَيها﴾ أما الهوى فعكس ذلك تمامًا. الهوى يجعلك شقيًا، فهو تمامًا مثل المخدرات، ستتوق اليه دائمًا، ولكنك لن تكتفي أبدا. وحتى إذا استسلمت له، فلن يجلب لك السعادة.

على الرغم من أن السعادة القصوى هي هدفنا جميعا، إلا أنه في أغلب الأحيان يتعذر علينا الرؤيا بوضوح وسط الأوهام، والتمييز بين الحب والهوى. هناك طريقة لا تحتمل الخطأ، بأن تسأل نفسك هذا السؤال: هل اقترابي من هذا الشخص الذي" أحب " يجعلني أقرب من - أو أبعد من - الله؟ أو بعبارة أخرى، هل حل هذا الشخص محل الله سبحانه وتعالى في قلبي؟

لا ينبغي للحب الحقيقي أو الخالص، أن يتعارض أو يتنافس مع حب أحدنا لله سبحانه وتعالى، بل يجب أن يدعمه. لهذا السبب، الحب الحقيقي ممكن فقط في حدود ما جعله الله مباحًا، وما غير ذلك، لا شيء أكثر من هوى، والذي إما سنخضع له أو نرفضه. فنحن إما عبيد لله وإما عبيد لهوانا. لا يمكن أن تكون عبيدًا للاثنين معا.

صراعنا ضد المتع الزائفة، هو الذي سيمكننا من الوصول إلى المتع الحقيقية، فهما حسب تعريفها امران متضادان، ولهذا السبب يصبح كفاحنا ضد شهواتنا شرطا أساسيا لبلوغنا الجنة. قال تعالى: ﴿وَأَمّا مَن خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفسَ عَنِ الهَوى فَإِنَّ الجَنَّةَ هِيَ المَأوى﴾ (النازعات: 40 - 41)

الحب في الهواء

الحب في الهواء!

على الأقل هذا ما يريد المعلنون أن تعتقده في فبراير. فبينما إظهارك الدائم لحبك يعتبر شيئا جميلا، يأتي (الفالنتاين) مرة واحدة في السنة، ويتركك بدون خيار، إما أن تظهر حبك، وإما أن تجازف بأن تكون ذلك الشخص عديم الإحساس. بالنسبة لأصحاب محلات الورود، وأسواق الحلويات، يأتي العيد في فبراير.

وعلى الرغم من كونك في خضم هذه المشاعر المسوقة، فستجد صعوبة في التوقف عن التفكير فيمن تحب، وفي مثل هذه الحالة، ستواجهنا - لا محالة - بعض الأسئلة المحورية. خطرت على بالي بعض الأسئلة، عندما تأملت شيئا قالته لي إحدى صديقاتي، حيث وصفت الشعور الذي ينتابها عندما تكون مع الشخص الذي تحب. بوصفها، كل العالم يختفي عندما يكونان معًا. كلما تأملت عبارتها، أثرت فيّ أكثر، وجعلتني أسأل:

بوصفنا بشرا، خلقنا للإحساس بالحب والتعلق بالآخرين، فهذا جزء من طبيعتنا البشرية. ولكن في الوقت الذي نشعر فيه بهذه الأحاسيس تجاه شخص آخر، نلتقي خمس مرات يوميا مع إلهنا وخالقنا، مما جعلني أسأل كم مرة شعرنا بأن العالم كله يختفي عندما

تكون بحضرته. هل يمكن أن ندعي بأن حبنا لله سبحانه وتعالى أعظم من أي شخص أوأيّ شيء آخر؟

غالبا ما نتصور أن الله سبحانه وتعالى يختبرنا بالمصائب فقط، ولكن هذه ليست الحقيقة. الله سبحانه وتعالى يختبرنا أيضا بالرخاء. يختبرنا بالنعم والأشياء التي نحب، وغالبا ما يفشل الكثير منا في هذه الاختبارات. نفشل لأنه عندما ينعم الله علينا، فإننا نحولها بجهلنا إلى أصنام مزيفة لقلوبنا.

عندما ينعم الله سبحانه وتعالى علينا بالمال، نعتمد على المال بدل اعتمادنا على الله سبحانه وتعالى ننسى بأن مصدر زادنا لم ولن يكون المال، بل مصدره الذي أعطى المال. فجأة نصبح مستعدين لبيع الكحول للحصول على ربح أوفر من تجارتنا، ونلجأ لأخذ قروض ربوية لكي نشعر بالأمان. بفعلنا هذا، نحن، وبجهاقة - من المفارقة - نعصي المزود لمحاولة الحفاظ على الزاد.

عندما يمنحنا الله سبحانه وتعالى شخصا نحبه، ننسى أن الله سبحانه وتعالى هو مصدر هذه النعمة، ونبدأ بحب ذلك الشخص كما كان ينبغي أن نحب الله سبحانه وتعالى. ويصبح ذلك الشخص محور حياتنا، وكل همومنا وأفكارنا وخططنا ومخاوفنا، وأمانينا تدور حوله فقط. إذا لم يكونوا أزواجنا، نكون مستعدين أحيانا للوقوع في الحرام لكي نكون معهم، ولو تخلوا عنا يتحطم عالمنا، فبهذا حولنا عبادتنا من مصدر النعمة إلى النعمة نفسها.

يقول الله تعالى في وصفه لهؤلاء الناس:﴿وَمِنَ النّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دونِ اللَّهِ أَندادًا يُحِبّونَهُم كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذينَ آمَنوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ (البقرة: 165)

بسبب قابليتنا للضياع بعد أن يمنحنا الله النعم، يحذرنا سبحانه وتعالى في القرآن الكريم بقوله:﴿قُل إِن كانَ آباؤُكُم وَأَبناؤُكُم وَإِخوانُكُم وَأَزواجُكُم وَعَشيرَتُكُم وَأَموالٌ اقتَرَفتُموها وَتِجارَةٌ تَخشَونَ كَسادَها وَمَساكِنُ تَرضَونَها أَحَبَّ إِلَيكُم مِنَ اللَّهِ وَرَسولِهِ وَجِهادٍ في سَبيلِهِ فَتَرَبَّصوا حَتّى يَأتِيَ اللَّهُ بِأَمرِهِ وَاللَّهُ لا يَهدِي القَومَ الفاسِقينَ﴾ (التوبة: 24)

من المهم جدا أن نلاحظ أن حب كل ما ذكر في الآية السابقة مباح، وهي نعم بذاتها. وبالفعل بعض هذه النعم آيات على قدرة الله سبحانه وتعالى، فمن جهة يقول الله تعالى:﴿وَمِن آياتِهِ أَن خَلَقَ لَكُم مِن أَنفُسِكُم أَزواجًا لِتَسكُنوا إِلَيها وَجَعَلَ بَينَكُم مَوَدَّةً وَرَحمَةً إِنَّ في ذلِكَ لَآياتٍ لِقَومٍ يَتَفَكَّرونَ﴾ (الروم: 21)

ومن جهة أخرى، يحذرنا الله قائلا:

﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنوا إِنَّ مِن أَزواجِكُم وَأَولادِكُم عَدُوًّا لَكُم فَاحذَروهُم﴾ (التغابن: 14)

من التحذير في هذه الآية خطير، فقد تم ذكر أزواجنا وأولادنا في هذه القائمة لأنهم من بين أكثر من نحب هذه النعم، والاختبار الأعظم يكمن فيما تحب أكثر. فإذا كان نجاحنا في هذا الاختبار، يعني

النظر بطاقات التهنئة والورد إلى حب أعظم ينتظرك، فليكن كذلك. ومتى سيكون هذا من خلال عاصفة. الأمر أكثر أهمية؟

لأن بعد كل هذا، فإن الحب في الهواء.

هذا هو الحب

هناك آخرون يقضون حياتهم كلها في البحث. يعطون أحيانا وأحيانا أخرى يأخذون. أحيانا يلاحقون، لكن غالبا ما ينتظرون. يعتقدون أن الحب مكان نصل إليه. وجهة في نهاية طريق طويل، ويتوقون إلى خط النهاية. هم تلك القلوب التي تتحرك بنبض القلوب. الرومانسيون المنجذبون لقصص الحب أو أي تعبير صادق لإخلاص حقيقي. بالنسبة لهؤلاء، البحث يتحول إلى نوع من الهواجس التي تلازمهم مدى الحياة، لكن هذا المطلب المأساوي الذي يسعون في طلبه له تكلفته وعطاياه أيضا.

طريق التوقعات والسقوط في " حب الحب " طريق مؤلم، لكنه يأتي بدروسه. دروس عن طبيعة الحب وهذا العالم والناس، بل وحتى دروس عن قلبك، كل هذه الدروس تستطيع أن تمهد هذا الطريق المؤلم. وفوق كل شيء، هذا الطريق يأتي بدروس عن خالق الحب.

هؤلاء الذين يسلكون هذا الطريق، سيتوصلون إلى معرفة أن الحب البشري الذي يبحثون عنه لم يكن هو الوجهة التي يقصدونها. بعض أشكال هذا الحب البشري من الممكن أن يكون هبة، ومن الممكن أن يكون وسيلة. لكن في اللحظة التي تجعله غاية ستسقط،

وستقضي حياتك كلها من أجل هدف خاطئ. ستكون مستعدا للتضحية بالهدف من أجل الوسائل. ستبذل حياتك للوصول إلى " وجهة " من الكمال الدنيوي غير الموجود.

ومن يركض وراء سراب، فلن يصل إليه أبدا. بل سيبقى راكضا. وهكذا أيضًا ستبقى أنت راكضاء وستكون مستعدًا لتحمل الأرق والحرمان من النوم، والبكاء والنزف والتضحية بأجزاء ثمينة من نفسك، وأحيانًا، حتى كرامتك. ولن تصل إلى ما تبحث عنه في هذه الحياة، لأن ما تبحث عنه ليس وجهة دنيوية. نوع الكمال الذي تبحث عنه لن تجده في هذا العالم المادي. يمكنك أن تجده فقط في الله سبحانه وتعالى.

صورة الحب البشري الذي تبحث عنه هو سراب في صحراء الحياة. فإن كان هذا ما تبحث عنه فستظل لاهثًا خلفه. لكن مهما اقتربت من السراب، فلن تلمسه. فأنت لا تملك الصورة، ولا تستطيع أن تمسك بشيء من نسيج مخيلتك.

ومع ذلك تقدم حياتك كلها لبلوغ ذلك " المكان " تفعل ذلك لأن الحكاية في القصص الخيالية تنتهي هناك. تنتهي باللقاء والألفة والعرس. إنها توجد باتحاد روحين. وكل من حولك سيجعلك تتخيل أن طريقك ينتهي هناك: في المكان الذي تلتقي فيه مع شريك حياتك، ونصفك الآخر، في تلك البقعة من الطريق التي ستتزوج فيها. وعندها، وفقط عندها، سيخبرونك أنك ستصبح كاملا. بالطبع هذه أكذوبة، لأن الكمال لا يوجد في أي شيء غير الله سبحانه وتعالى.

لكن الدروس التي تعلمتها منذ طفولتك - من كل قصة وكل أغنية وكل فيلم وكل دعاية، وكل عمة طيبة النية - بأنك لن تكون كاملًا مالم تصل إلى ذلك المكان. وبالتالي إن كنت - لا سمح الله - واحدًا من " المنبوذين " الذين لم يتزوجوا أو تطلقوا، فستُعدّ معابًا أو غير كامل في جانب معين.

الدرس الذي عُلمتَه، هو أن القصة تنتهي عند العرس، وحينها تبدأ حياتك في الفردوس. حينها ستنقذ وتصبح كاملا، وكل ماكسر سابقًا سيجبر. المشكلة الوحيدة بأنها ليست نهاية القصة. هذه بدايتها. هذه بداية البناء: بناء الحياة وبناء شخصيتك، بناء الصبر والصمود والتضحية، وبناء الإيثار، وبناء الحب.

وبناء طريقك للعودة إلى الله سبحانه وتعالى.

لكن إذا أصبح الشخص الذي تزوجت هو الهدف النهائي في حياتك، فإن مصاعبك تكون قد بدأت الآن، وسيصبح زوجك اختبارك الأعظم، وسيستمر ألمك إلى أن تقوم بإبعاد هذا الشخص من المكان الذي في قلبك، المكان الذي ينبغي أن يكون مخصصا لله سبحانه وتعالى فقط. والمفارقة أن زوجك سيكون هو الأداة في عملية النزع المؤلمة، حتى تدرك أن هناك مواضع في قلب الإنسان، خلقها الله سبحانه وتعالى له فقط.

من الدروس الأخرى التي يمكن أن تدركها في هذا الطريق - بعد درب طويل من الفقدان والكسب، والخسارة والنجاح، والكثير من

الأخطاء - بأن هناك على الأقل نوعين من الحب. سيكون هناك أناس تحبهم من أجل ما تحصل عليه منهم؛أي ما يعطونك، والإحساس الذي يجعلونك تشعر به. ربما هذا النوع يمثل غالبية الحب، وهو أيضا ما يجعل معظم الحب متقلبًا. لأن قابلية الشخص للعطاء متذبذبة ومتغيرة، وكذلك تجاوبك مع ما تعطى متذبذب ومتغير. فإذا كنت تطارد شعورا فستظل تطارده دائما، لأنه ليست هناك مشاعر ثابتة. إذا كان الحب يعتمد على ذلك فإنه هو أيضاً سيصبح متذبذبًا ومتغيرا. مثل أي شيء في هذا العالم، كلما طاردته، هرب منك.

لكن، بين حين وآخر، يدخل في حياتك أناس تحبهم ليس لأجل ما يعطونك - ولكن لأجل ما هم عليه. الجمال الذي تراه فيهم، انعكاس للخالق، ولهذا تحبهم. فجأة، لم يعد يهمك ما يمكنك أن تحصل عليه، لكن ما يمكنك أن تعطيه. هذا هو الحب الإيثاري. هذا النوع الثاني من الحب هو الأكثر ندرة، وإذا كان مبنيا على الله سبحانه وتعالى، ولا يتنافس معه أحد، فإنه سيجلب أيضا الكثير من السعادة. أن تحب بأي طريقة أخرى، هو أن تكون محتاجًا وتصبح متكلاً، وتكون لك توقعات وآمال – وتلك وصفة للتعاسة وخيبة الأمل.

فلكل من قضى حياته باحثًا، اعلم أن كل شيء يوجد عند المنبع. فإن كنت تبحث عن الحب، فابحث عنه من خلال الله سبحانه وتعالى. فكل جدول آخر لا يبنى على حبه، سيسمم من يشرب منه. والشارب سيستمر في الشرب، إلى أن يوشك السم على قتله. سيستمر

موته الداخلي شيئًا فشيئًا، إلا إذا توقف عن ذلك ووجد المنبع النقي للماء.

عندما تبدأ برؤية كل شيء جميل وتجد بأنه مجرد انعكاس لجمال الله سبحانه وتعالى، سوف تتعلم كيف تحب بالطريقة الصحيحة: من أجله. كل شيء، وكل من تحب، ستكون محبته قائمة على محبة الله سبحانه وتعالى وبسببه، فأساس هذا الحب هو الله سبحانه وتعالى. وبالتالي فإن ما تتمسك به لن يصبح شعورا غير متزن أو انفعالًا زائلًا، وما تلاحقه لن يصبح نشوة وقتية. ما تتمسك به وما تلاحقه وما تحبه، سيكون هو الله سبحانه وتعالى الوحيد المتزن والدائم. وبعد ذلك، كل شيء آخر سيكون من خلاله. كل ما تعطي أو تأخذ أو تحب أو تبغض، سيكون منه، وليس من نفسك، وسيكون لأجله سبحانه وتعالى، وليس لأجل نفسك.

هذا يعني أنك ستحب ما يحب وتبغض ما يبغض. وعندما تحب، ستعطي للخليقة، ليس من أجل ما يمكن أن تأخذه منهم بالمقابل. ستحب وستعطي، ويكون هو الكافي. ومن يكفه الله سبحانه وتعالى فسيكون أغنى وأكرم المحبين. سيكون حبك منه وله وبسببه. هذا هو إعتاق النفس من عبودية أي مخلوق. وهذه هي الحرية. هذه هي السعادة.

هذا هو الحب.

أحِبَّ ما هو حقيقي

ليس من السهل أبدا التخلي عن أمر ما. أم أن ذلك أمر ممكن؟ أغلبنا سيوافق على أن التخلي عما نحب يعد من أصعب الأمور. وعلى الرغم من ذلك، فهو ما يجب علينا فعله. أحيانا نحب أشياء لا نستطيع امتلاكها، وأحيانا نرغب في أشياء ليست في صالحنا، وأحيانا نحب ما لا يحبه الله. من الصعب التخلي عن هذه الأشياء. التخلي عن شيء يهيم به القلب هي واحدة من أصعب المعارك التي يمكن أن نخوضها. لكن ماذا لو لم تكن كذلك؟ ماذا لو لم تكن المعركة بهذه الصعوبة؟ هل هناك طريق أسهل للتخلي عما تعلقنا بة؟ هناك تجد شيئا أفضل.

يُقال إنك لا تستطيع التخلي عن شخص حتى تجد شخصا أو شيئا أفضل، وكوننا بشرًا لا نستطيع التعامل جيدا مع الفراغ. فأي حيّز فارغ يجب أن يملأ حالًا. ألم الفراغ شديد للغاية. إنه يجبر الضحية على ملء ذلك الفراغ. لحظة واحدة في الفراغ تسبب ألما موجعًا، ولهذا السبب نركض من لهو إلى لهو، ومن علاقة إلى أخرى.

في بحثنا حول تحرير القلب، نتكلم كثيرا عن كسر ارتباطاتنا المزيفة، ولكن.. هنالك دائما سؤال يطرح نفسه (كيف؟) حالما ينشأ ارتباط مزيف، كيف لنا أن نفر منه؟ كثيرا ما يبدو ذلك أمرا غاية في

الصعوبة. فقد نصاب بالإدمان على أشياء، ونصبح غير قادرين على التخلي عنها حتى عندما تؤذينا. حتى عندما تفسد حياتنا وصلتنا مع الله سبحانه وتعالى، وحتى عندما تكون شديدة الضرر علينا. فإننا لا نستطيع التخلي عنها، فاعتمادنا عليها شديد، وحبنا لها كبير وبالطريقة الخطأ. هذه الأشياء تملأ حيزا في داخلنا نظن أننا بحاجة إليه، ولا نستطيع العيش بدونه. لهذا، حتى اذا صارعنا أنفسنا للتخلي عنها، فغالبا ما سنترك الصراع ونستسلم لأنه شديد الصعوبة. لماذا يحدث هذا؟ لماذا يصيبنا اضطراب كبير عندما نضحي بما نحب من أجل ما يحبه الله؟ لماذا يصعب علينا التخلي عن هذه الأشياء؟

أتصور أننا نقاوم كثيرا للتخلي عما نحب، لأننا لم نعثر على شيء نحبه بشكل أكبر ليحل محل ما أدمنا علية.

يقع طفل في حب سيارة، مستغرقا في ذلك الحب، ولكن ماذا لو لم يتمكن من الحصول عليها؟ ماذا لو كان عليه أن يمر أمام متجر الألعاب كل يوم، ويرى اللعبة التي لا يستطيع الحصول عليها؟ كلما مر أمام المتجر تألم، بل ربما سيقاوم رغبته في حيازتها حتى لا يقوم بسرقتها. لكن ماذا لو نظر هذا الطفل وراء نافذة المتجر، ورأى سيارة حقيقية؟ ماذا لو رأى سيارة فيراري حقيقية؟ هل سيستمر في الصراع مع رغبته في حيازة اللعبة؟ هل سيستمر في مقاومة الدافع لسرقتها؟ أم سيسير بجانب اللعبة دون الاكتراث بها، لأن تفاوت العظمة يبطل الصراع؟

نحن نريد الحب والمال والمركز. نحن نريد الحياة. ومثل ذلك

الطفل، سنصبح مشغوفين بهذه المحبوبات. وعندما لا نتمكن من الحصول على تلك الأشياء، سنصير ذلك الطفل الذي يمر بالمتجر؛ نصارع أنفسنا كي لا نسرق ما نتطلع إليه. نصارع حتى لا نرتكب حراما من أجل الحصول على ما نحب. نصارع كي نتخلى عن العلاقات والصفقات والتصرفات والملابس المحرمة. نقاوم كي نتخلى عن حب هذه الدنيا. نحن العبد المتعثر الذي يصارع للتخلي عن اللعبة، لأنها كل ما نراه.

هذه الحياة، وكل ما فيها مثل تلك اللعبة. لا نستطيع التخلي عنها، لأننا لم نتمكن من العثور على شيء أعظم منها. لا نرى الشيء الحقيقي. النسخة الحقيقية. النموذج الحقيقي.

يقول الله سبحانه وتعالى:﴿وَما هٰذِهِ الحَياةُ الدُّنيا إِلّا لَهوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوانُ لَو كانوا يَعلَمونَ﴾ (العنكبوت: 64).

عندما يصف الله سبحانه وتعالى هذه الدنيا، فإنه يستعمل كلمة الحياة، ولكن عندما يصف عز وجل الآخرة، فإنه يستخدم صيغة المبالغة لكلمة الحياة (الحيوان). فالآخرة، هي الحياة الحقيقية، هي الحياة الأكثر حقيقة، هي النسخة الحقيقية. ثم يختم الله سبحانه وتعالى الآية بقوله:﴿لَو كانوا يَعلَمونَ﴾ إذا تمكنا من رؤية الشيء الحقيقي، فبإمكاننا التخلي عن حبنا العميق للنموذج المزيف الأدنى.

وفي آية أخرى يقول الله تعالى:﴿بَل تُؤثِرونَ الحَياةَ الدُّنيا وَالآخِرَةُ خَيرٌ وَأَبقى﴾ (الأعلى: 17 - 16).

النسخة الحقيقية هي أفضل جودة (خير)، وأفضل كما (أبقى). مهما كان حبنا لما في هذه الحياة عظيما، فإنه سيكون دائما ناقصا من حيث الجودة لاتسامه بالعيوب، وناقصا من حيث الكم لعدم ديمومته.

ما سبق لا يعني أننا لا نستطيع أن نملك أو حتى نحب الأشياء الموجودة في هذه الحياة، فقد أمرنا - بوصفنا مؤمنين - أن نطلب الخير في هذه الحياة، وفي الآخرة، لكن الفرق بينها مثل الفرق بين لعبة السيارة، والسيارة الحقيقية. فحين نتمكن من امتلاك لعبة السيارة أو حتى الاستمتاع بها، فإننا ندرك في الوقت نفسه الفرق بينها، وبين السيارة الحقيقية. نفهم تماما بأن هناك نموذجا أدنى - (دنيا) مشتقة من جذر الكلمة (دنا) ومن معانيها (الأدنى) - وهناك النموذج الحقيقي (الآخرة).

لكن كيف سيساعدنا هذا الادراك في حياتنا هذه؟ يساعدنا، لأنه يجعل (الصراع) لاتباع الحلال واجتناب الحرام أكثر يسرًا، فكلما رأينا الشيء الحقيقي، تيسر علينا ترك ما هو (غير حقيقي) عند الضرورة. لا يعني هذا أنه علينا ترك ما هو (غير حقيقي) بشكل تام، أو دائم. لكن ذلك سيجعل علاقتنا مع النموذج الأدنى (الدنيا)، علاقة نستطيع فيها التخلي عن أي شيء في الدنيا من أجل الحياة الحقيقية دون صعوبة بالغة، إذا ما طُلِب منا ذلك. فإذا طُلِب منا أن نمتنع عن محرمات نرغب فيها، فإن ذلك، سيصبح أمرا سهلا، وكذلك الحال إذا طلب منا أن نتمسك بواجبات لا نريد تنفيذها. فسنصبح ذلك

الطفل الناضج الذي يحب أن يمتلك اللعبة، ولكن إذا طلب منه أن يختار بين اللعبة والشيء الحقيقي، فلن يكلفه الاختيار أي جهد. فعلى سبيل المثال، كان الكثير من أصحاب الرسول صلي الله عليه وسلم يملكون ثروات، ولكن حينما لزم الأمر، كان من السهل عليهم أن يستغنوا عن نصفها أو كلها في سبيل الله سبحانه وتعالى.

هذا التركيز سيساعدنا أيضا على معرفة من يتوجب علينا أن نتوسل إليه طلبا للعون والرضا. فإذا كنا بحاجة ماسة إلى شيء ما، ولم نرَ أو نعرف الملك، فإننا سنتضرع إلى الخادم فقط. لكن إذا كنا في طريقنا لمقابلة الملك، ومررنا بخادمه، فقد نقوم بتحيته ونحسن إليه، بل حتى قد نحبه، ولكن لن نضيع وقتنا في محاولة اكتساب رضا الخادم، إذا ما كان هنالك ملك نسعى لاكتساب رضاه. فلن نضيع جهدنا في سؤال الخادم لتلبية حاجتنا، في الوقت الذي يكون فيه الملك هو المتحكم. وحتى لو أعطى الملك شيئا من الصلاحيات للخادم، فسنعلم جيدا بأن القدرة على الأخذ والعطاء ستبقى في المحصلة النهائية بيد الملك هنا الفهم لا يتأتى إلا عند معرفة الملك ورؤيته، وهو الذي سيغير تماما كيفية تعاملنا مع الخادم.

رؤية الشيء الحقيقي ستغير من طريقة حبنا. تعرض شيخ الإسلام ابن تيمية لهذا المفهوم عندما قال: «ومن أعظم أسباب هذا البلاء - يعني العشق - إعراض القلب عن الله، فإن القلب إذا ذاق طعم عبادة الله والإخلاص له لم يكن عنده شيء قط أحلى من ذلك ولا ألذ ولا أمتع ولا أطيب، والإنسان لا يترك محبوبا إلا بمحبوب آخر يكون

أحب إليه منه أو خوفا من مكروه، فإنما ينصرف القلب عن الحب الفاسد بالحب الصالح أو بالخوف من الضرر».

واحدة من أعظم المشاكل التي تواجهنا بوصفنا أمة هو ما ذكره الرسول صلي الله عليه وسلم في حديثه الشريف: الوهن (حب الدنيا وكراهية الموت). لقد وقعنا في حب الدنيا، ومتى ما وقعنا في حب شيء، فسيكون من المستحيل ترك ما نحب، أو الانفصال عنه، إلا إذا وقعنا في حب شيء أعظم منه.

من شبه المستحيل زحزحة ذاك الحب المدمر - للدنيا - من قلوبنا؛ حتى نجد شيئًا أعظم ليحل محله. وعند عثورنا على حب أعظم، سيكون من السهل التخلي عن الحب الآخر.

عندما يتجلى حب الله ورسوله وصحبته في الآخرة، فإن ذلك الحب سيتغلب ويسيطر على كل حب آخر في القلب، وكلما تجلى ذلك الحب، زادت سيطرته، وأصبح من السهل تفعيل ما قاله إبراهيم عليه السلام:﴿قُل إِنَّ صَلاتي وَنُسُكي وَمَحيايَ وَمَماتي لِلَّهِ رَبِّ العالَمينَ﴾ (الأنعام: 162).

ولذلك فإن القدرة على التخلي عن شيء ما، تكمن في الحب. قع في الحب، قع في حب شيء أعظم، قع في حب الشيء الحقيقي، وانظر إلى القصر. حينها فقط ستتوقف عن اللعب في بيت الدمى.

الزواج الناجح: الحلقة المفقودة

﴿وَمِن آياتِهِ أَن خَلَقَ لَكُم مِن أَنفُسِكُم أَزواجًا لِتَسكُنوا إِلَيها وَجَعَلَ بَينَكُم مَوَدَّةً وَرَحمَةً إِنَّ في ذٰلِكَ لَآياتٍ لِقَومٍ يَتَفَكَّرونَ﴾ (الروم: 21). [1]

كلنا قرأ هذه الآية في العديد من بطاقات الزواج. لكن كم منا حققها في الواقع؟ كم من زيجاتنا تجسد حقًا المودة والرحمة اللتين وصفها الله سبحانه وتعالى؟ ما الخطأ الذي يحصل، والذي ينهي الكثير من زيجاتنا بالطلاق؟

وفقا للدكتور ايمرسون إيكرك صاحب كتاب الحب والاحترام: الحب الذي ترغب به هي، والاحترام الذي يرغب به هو: الجواب بسيط. ففي كتابه يوضح ايمرسون أن بحوثًا شاملة قد بينت أن حاجة الرجل الأساسية هي الاحترام، بينما حاجة المرأة الأساسية هي الحب. يصف ايمرسون نموذج الجدال الذي ينتج. عندما لا تبدي الزوجة احترامًا، ولا يبدي الزوج حبًا، ويطلق عليه مصطلح " الحلقة المجنونة " كما يشرح المؤلف كيف أن قلة الحب وغياب الاحترام يعزز أحدهما الآخر ويسببه. أو بعبارة أخرى، عندما تشعر الزوجة بأن

(1) هذه المقالة تفترض وجود أقل درجة من الاحترام المتبادل بين الزوجين. مفهوم الاحترام لا يعني مطلقًا التجاوز عن سوء المعاملة (المادي أو العاطفي أو النفسي). ليس معنى الصبر أن تتقبل سوء المعاملة تجاهك أو تجاه أسرتك، لأن الله سبحانه وتعالى لا يرضى بالظلم، ويجب علينا ألا نرضى به أيضا.

بأن تصرفات زوجها غير ودود، فهي في أغلب الأحيان ستواجه ذلك بقلة الاحترام، الأمر الذي يؤدي بدوره إلى دفع الزوج إلى التصرف بطريقة أقل ودا. يرى ايمرسون أن الحل الوحيد لكسر " الحلقة المجنونة " هو أن تبدي الزوجة احترامها غير المشروط لزوجها، وأن يبدي الزوج حبه غير المشروط لزوجته. هذا يعني أنه لا ينبغي على الزوجة قول إن على زوجها أن يحبها أولا قبل أن تبدي له الاحترام؛ فبفعلها هذا، ستجلب فقط المزيد من التصرفات العدائية. ولا ينبغي على الزوج قول إن على زوجته إبداء الاحترام له قبل أن يبدي لها الحب؛ فبفعله هذا سيجلب فقط المزيد من التصرفات المهينة له. يجب على الاثنين ألا يشترطا ذلك.

بعد تأمل ما ذكره الدكتور ايمرسون، أدركت بعد التمعن في القرآن الكريم والحكمة النبوية، بأنهما لم يُشددا على مفهومين أكثر مما شددا في العلاقات الزوجية.

فقد قال الرسول صلي الله عليه وسلم للرجال: (وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا؛ فَإِنَّهُنَّ خُلِقْنَ مِنْ ضِلْعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلْعِ أَعْلَاهُ، فَإِنْ ذَهَبَتْ تُقِيمُهُ كَسَرَتْهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا) (البخاري ومسلم).

كما أكد عليه الصلاة والسلام: (أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ) (سنن الترمذي).

وفضلا عن ذلك فقد قال صلي الله عليه وسلم: (لَا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ

مُؤْمِنَةً، إنْ كَرِهَ منها خُلُقًا رَضِيَ منها آخَرَ) (مسلم). ويقول الله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعروفِ فَإِن كَرِهتُموهُنَّ فَعَسى أَن تَكرَهوا شَيئًا وَيَجعَلَ اللَّهُ فيهِ خَيرًا كَثيرًا﴾ (النساء: 19).

تحث جواهر الحكمة السابقة الرجال على ود زوجاتهم والإحسان إليهن، وفضلا عن ذلك فهي تدعوهم إلى غض الطرف عن عيوبهن وإظهار هذه المودة والرحمة. وفي المقابل عند توجيه الخطاب إلى الزوجة، اختلفت نقطة التركيز. فلماذا لم يطلب من النساء المرة تلو الأخرى بأن يحبوا أزواجهم ويحسنوا إليهم؟ ربما لأن الحب غير المشروط هو من طبيعة المرأة. قليل من الرجال يشتكي من عدم حب زوجاتهم لهم، ولكن الكثير منهم يشتكي من عدم احترام زوجاتهم لهم، وهذه هي العاطفة التي كثيرا ما شدد عليها في القرآن مخاطبة الزوجات.

من الممكن إظهار الاحترام بطرق عديدة. من أكثرها أهمية، احترام رغبات الآخر. فعندما يقول شخص ما " أحترم نصيحتك "، فإنه يعني بذلك أنه "سيأخذ بها " احترام القائد يعني فعل ما يقوله. احترام الوالدين يعني عدم معارضة رغباتهم. واحترام الزوج يعني احترام رغباته. قال الرسول صلي الله عليه وسلم: (إِذَا صَلَّتْ الْمَرْأَةُ خُمْسَهَا، وَصَامَتْ شَهْرَهَا، وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا، وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا قِيلَ لَهَا: ادْخُلِي الْجَنَّةَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شِئْتِ) (الترمذي). لماذا نحن النساء أمرنا باحترام واتباع رغبات أزواجنا؟ السبب وراء هذا أن الرجال أعطوا درجة إضافية من المسئولية. يقول الله تعالى:

﴿الرِّجالُ قَوّامونَ عَلَى النِّساءِ بِما فَضَّلَ اللَّهُ بَعضَهُم عَلى بَعضٍ وَبِما أَنفَقوا مِن أَموالِهِم﴾ (النساء: 34).

ولكن أليس الاحترام غير المشروط تجاه الزوج، يجعلنا - بوصفنا نساء - في موضع ضعف وخضوع؟ ألسنا بهذا نهيئ الظروف لكي يتم استغلالنا وإساءة معاملتنا؟

على النقيض من ذلك تماما. فقد أثبت القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة والدراسات البحثية الحديثة العكس من ذلك تماما. فكلما أظهرت المرأة احتراما أكثر لزوجها، أظهر لها حبا وحنانا أكثر. وفي المقابل، فكلما أظهرت عدم احترام لزوجها، أصبح أكثر قسوة وأقل حبا.

وبالمثل فقد يتساءل رجل ما، لماذا يجب عليّ أن أظهر حبا وحنانا حتى لزوجة قليلة الاحترام لي؟ للإجابة عن هذا السؤال، يحتاج الشخص إلى النظر إلى مثال عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

فيُحكى أنه جاء رجل إلى عمر رضي الله عنه يشكو إليه خلق زوجته، فوقف ببابه ينتظره، فسمع امرأته تتطاول عليه بلسانها، وهو ساكت لا يرد عليها، فانصرف الرجل قائلًا: إذا كان هذا حال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فكيف حالي؟ فخرج عمر فرآه موليا فناداه: ما حاجتك يا اخي؟ فقال: يا أمير المؤمنين جئت أشكو اليك خُلق زوجتي وتطاولها علي، فسمعت زوجتك كذلك، فرجعت وقلت: إذا كان هذا حال أمير المؤمنين مع زوجته، فكيف حالي؟

فقال عمر: تحملتها لحقوق لها عليّ، فإنها طباخة لطعامي، غسالة لثيابي، مرضعة لأولادي، وليس ذلك بواجب عليها، فأنا أتحملها لذلك.

تزودنا هذه القصة بمثال جميل لنا جميعا، وليس للرجال فقط. تصور القصة مثالا لا يقدر بثمن عن التسامح والصبر، وهما أمران ضروريان في أي زواج ناجح، وفضلا عن ذلك عليك بتدبر أجر الصابرين في الآخرة. يقول الله تعالى:

﴿قُل يا عِبادِ الَّذينَ آمَنُوا اتَّقوا رَبَّكُم لِلَّذينَ أَحسَنوا في هذِهِ الدُّنيا حَسَنَةٌ وَأَرضُ اللَّهِ واسِعَةٌ إِنَّما يُوَفَّى الصّابِرونَ أَجرَهُم بِغَيرِ حِسابٍ﴾ (الزمر: 10).

المصاعب

الملاذ الوحيد من العاصفة

ليس من السهل أبدا الوقوف عندما تضرب العاصفة، فسرعان ما يبدأ هطول المطر، وعاجلا يتبعه البرق. غيوم مظلمة تحل محل الشمس، وكل ما تستطيع رؤيته هو أمواج المحيط المتلاطمة، وقد أحاطت بك بعد أن كان هادئا. وعندما لم تعد قادرا على أن تجد طريقك، لم يبق أمامك سوى أن تمد يدك لطلب المساعدة.

تبدأ بالاستنجاد بحراس الشواطئ، بلا جواب. تحاول ثانية إعادة توجيه القارب، بلا جدوى. تبحث عن قارب النجاة، فلا تجده. تحاول الوصول إلى سترة النجاة، فتراها ممزقة. أخيرا وبعد أن استنفدت كل الوسائل تحول وجهك إلى أعلى، وتتضرع إلى الله سبحانه وتعالى.

ولكن.. هنالك شيء فريد تماما يخص هذه اللحظة. ففي هذه اللحظة ستشعر بشيء لم تتعرف عليه مسبقا إلا نظريا: التوحيد الحقيقي، والوحدانية. فعلى الشاطئ لربما دعوت الله سبحانه وتعالى ولكنك دعوته ودعوت آخرين كثرا. لربما اعتمدت على الله سبحانه وتعالى، ولكنك اعتمدت عليه، واعتمدت على دعامات أخرى كثيرة أيضا. ولكن في هذه اللحظة الفريدة، كل شيء آخر مغلق. كل شيء. فلا شيء بقي لتدعوه، ولا شيء بقي لتعتمد عليه إلا هو عز وجل.

وتلك هي المسألة.

هل تساءلت يوما ما، لماذا عندما تكون في أمس الحاجة، يكون كل باب من أبواب الخلق التي تقصدها مغلقة؟ تطرق على واحدة، تجدها مغلقة تماما، تنتقل إلى أخرى، فتجدها مغلقة أيضا. تتنقل من باب إلى باب طارقا وقارعا على كل واحدة، ولكن بلا فائدة. وحتى تلك الأبواب التي كنت يوما ما معتمدا عليها فجأة أصبحت موصدة. لماذا؟ لماذا يحدث هذا؟

نحن البشر لدينا سجايا معينة يعرفها الله تعالى جيدًا، فنحن دائما في حالة احتياج، ونحن ضعفاء. ولكن في الوقت ذاته، متسرعون وغير صبورين. عندما تكون في مشكلة، نندفع لطلب العون، وهذا هو ما جُبلنا عليه. لماذا سنقصد ملاذا إذا كان الجو مشمسا و لطيفا؟ متى يقصد أحدنا إلى الملجأ للاحتماء؟ عندما تضرب العاصفة؟. لهذا يرسل الله سبحانه وتعالى العاصفة، فهو يخلق الحاجة من خلال حالة مدبرة، وبهذا سوف نجبر على البحث عن ملاذ. لكن عندما نطلب العون، بسبب قلة صبرنا، فإننا نطلبه مما هو قريب، مما يبدو سهلا. نطلبه مما نستطيع رؤيته وسماعه ولمسه. نبحث عن طرق مختصرة، ونقصد الاستعانة بالخلق ومن ضمنهم أنفسنا، فنحن نبحث عن العون مما يبدو اقرب شيء إلينا. اليس كل هذا مجسدًا لمعنى الدنيا؟ الدنيا التي تبدو قريبة. فكلمة " الدنيا " نفسها تعني " ما هو أدنى " الدنيا هي ما يبدو أقرب، ولكن هذا وهم فقط.

هناك شيء آخر أقرب.

فكر للحظة بما هو أقرب إليك. إذا تم طرح هذا السؤال، فإن الكثير منا سيقول إن القلب والنفس هما الأقرب، ولكن الله تعالى يقول:﴿وَلَقَد خَلَقنَا الإنسانَ وَنَعلَمُ ما تُوَسوِسُ بِهِ نَفسُهُ وَنَحنُ أَقرَبُ إِلَيهِ مِن حَبلِ الوَريدِ﴾ (ق: 16). ففي هذه الآية الكريمة يبدأ الله سبحانه وتعالى ببيان اطلاعه على صراعاتنا. هناك شعور بالراحة عندما نعرف بوجود من هو مطلع على صراعاتنا. هو يعلم ما تدعونا أنفسنا إليه، وهو أقرب إلينا من حبل الوريد. لماذا حبل الوريد؟ ما الشيء المميز في هذا الجزء منا؟ حبل الوريد هو أهم الأوردة التي تزود القلب بالدم، وإذا قطع فسنموت حالا. هو حقا حبل حياتنا. لكن الله سبحانه وتعالى أقرب إلينا منه. الله سبحانه وتعالى أقرب إلينا من حياتنا وذاتنا وأنفسنا، وهو أقرب من أهم ممر يمر إلى قلبنا.

وفي آية أخرى يقول الله سبحانه وتعالى:﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا استَجيبوا لِلَّهِ وَلِلرَّسولِ إِذا دَعاكُم لِما يُحييكُم وَاعلَموا أَنَّ اللَّهَ يَحولُ بَينَ المَرءِ وَقَلبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيهِ تُحشَرونَ﴾ (الأنفال: 24)

الله سبحانه وتعالى يعلم أننا نملك نفسًا، ونملك قلبًا. يعلم عز وجل أن تلك الأشياء تسيرنا. لكن الله سبحانه وتعالى يخبرنا بأنه أقرب إلينا حتى من أنفسنا وقلوبنا. فعندما نمد يدنا إلى غيره، فنحن لسنا فقط نمد يدنا إلى من هو أضعف، بل نمد يدنا متجاوزين ما هو أقرب، إلى ما هو أبعد وأقصى. سبحان الله؟!

كون ما سبق ذكره آنفًا يشكل طبيعتنا، وبما أن الله سبحانه وتعالى عليم بنا، فإنه يحمينا ويعيد توجيهنا بإبقاء أبواب جميع

الملاذات مغلقة أثناء العاصفة، فهو يعلم أن وراء كل باب مزيف سقوطًا، وإذا دخلناها فسنسقط، ولهذا فإن الله تعالي برحمته يبقي تلك الأبواب المزيفة مغلقة.

رحمة الله تعالى بنا هي التي أرسلت العاصفة نفسها، كي تجعلنا نطلب العون، وبمعرفته أننا في الغالب سنختار الجواب الخطأ، فإن الله تعالى يخضعنا لاختبار متعدد الاختيارات مع إتاحة اختيار واحد فقط. الإجابة الصحيحة فقط، فالعسر نفسه هو يسر. بإبعاده لجميع الدعامات الأخرى، وكل الخيارات الأخرى جعل الاختبار سهلًا.

ليس من السهل أبدا الوقوف عندما تضرب العاصفة. وتلك هي المسألة تماما. بإرساله سبحانه وتعالى الرياح، يجعلنا نجثو على ركبنا، وتلك هي الوضعية الأمثل للدعاء.

رؤية منزلك في الجنة: عند طلب العون الإلهى

أعرف قصة، هي ليست مجرد قصة. تبدأ مع امرأة أحبت شيئا أكبر من بهارج هذه الدنيا. كانت امرأة لم تسمح لنفسها أبدا بأن يتم اختزالها أو تقييدها من قبل ظروفها المؤلمة. حملت في نفسها قدرًا من الإيمان العميق الذي كانت مستعدة للموت من أجله. لقد كانت ملكة، وعلى الرغم من ذلك رأت زيف عروش هذه الدنيا وقصورها. لقد رأت زيف قصرها في هذه الدنيا، وتطلعت بدلا منه إلى قصرها في الآخرة. ولكن بالنسبة لآسيا، زوجة فرعون لم تكن هذه رؤية مجازية فقط في القلب، فبالنسبة لها كانت تراها بعينيها الحقيقيتين. يقول الله سبحانه وتعالى:﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذينَ آمَنُوا امرَأَتَ فِرعَونَ إِذ قالَت رَبِّ ابنِ لي عِندَكَ بَيتًا فِي الجَنَّةِ وَنَجِّني مِن فِرعَونَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّني مِنَ القَومِ الظّالِمينَ﴾ (التحريم: 11)

سمعت بقصة آسيا مرات عديدة، تهزني كل مرة. لكن مؤخرا هزتني قصتها، لسبب آخر تماما. قبل بضعة أشهر واجهت اختبارا صعبا، ومما لا شك فيه، أن تحظى بصحبة نفوس صالحة ملائكية شيء لا يقدر بثمن فعندما تكون في شدة فلن تحتاج إلا لرسالة نصية قصيرة أو تحديث حالة على الفيس بوك أو رسالة واحدة عبر البريد الإلكتروني إلى قائمة مستخدمي موقع صهيب ويب ليكون لك جيش كامل من أنفس جميلة تدعو لك سبحان الله.

وهكذا تقدمت بهذا الطلب. طلبت أعظم هدية ممكن لأي إنسان أن يعطيها لآخر، طلبت دعاء مخلصًا. تضرعًا! لكن ما تلقيته بهرني؛ لن أنسى أبدا هبة الله هذه. كان لدي أناس يدعون لي في قيام الليل، أثناء وقوفهم أمام الكعبة، وأثناء سفرهم، وحتى أثناء الولادة. تلقيت الكثير من الدعوات، لكن واحدا منها بهرني حقا. كانت رسالة نصية بسيطة، ونصها: " عسى أن تري بيتك في الجنة، كي تسهل عليك كل شدة " قرأتها وبهرتني! بهرتني حقًا!

حينها تذكرت قصة آسيا، وفجأة أدركت شيئا مذهلًا؛ كانت آسيا تحت أشد أنواع العذاب التي يمكن أن يتصورها إنسان! كان فرعون أكبر طاغية على وجه الأرض! لم يكن فقط الحاكم عليها، بل كان زوجها، وفي لحظاتها الأخيرة بدأ فرعون بتعذيبها بوحشية. ولكن حدث شيء عجيب، ابتسمت آسيا. كانت تمر بواحدة من أشد المصاعب، التي يمكن لأي إنسان أن يجربها، ومع ذلك ابتسمت!

كيف يمكن ذلك؟ كيف يمكن لها أن تبتسم، وهي في أشد حالات العذاب؟ بينما عندما نواجه نحن اختناقًا مروريًا، أو ينظر إلينا شخص ما بطريقة غير لائقة، لا نستطيع تحمل ذلك؟ كيف استطاع إبراهيم عليه السلام مواجهة واحدة من أعظم المصائب، ومع ذلك كانت النار بردًا وسلامًا عليه؟ لماذا لا يجد بعض الناس الذين لا يملكون شيئًا، سببًا للشكوى؛ بينما آخرون يملكون كل شيء ولا يجدون إلا أسبابا للتذمر؟ كيف نكون أحيانًا أكثر صبرًا عند مواجهتنا للتحديات الكبيرة في الحياة في الوقت الذي نفقد فيه صبرة عند

مواجهة أبسط التحديات اليومية؟ كنت أعتقد أن المصائب صعبة، لأن هنالك أشياء معينة يصعب احتمالها. كنت أظن أن هناك قائمة رئيسية بتدرج معياري للصعوبة، مثلًا موت شخص عزيز، يكون تحتله دائمًا أصعب من الحصول على مخالفة مرورية. يبدو أمرا واضحًا تمامًا. يبدو واضحًا، إلا أنه في الوقت نفسه خطأ أيضا.

المصيبة من أي نوع، ليست صعبة التحمل لكون المصيبة نفسها صعبة. معيار سهولة أو صعوبة المصيبة يقاس بميزان مختلف، ميزان غير مرئي. كل ما أواجهه في حياتي سيكون سهلًا أو صعبًا، ليس لأنه سهل أو صعب بحد ذاته، فالسهولة والصعوبة تعتمد على درجة العون الإلهي. لا شيء يسهل عليّ إلا إذا جعله الله سهلا، لا اختناق مروري، ولا حتى خدش بسيط. في المقابل؛ لا شيء يصعب عليّ إذا جعله الله سهلا. لا مرض، ولا موت، ولا قذف في النار، أو تعذيب من قبل طاغية.

عبّر ابن عطاء الله السكندري عن ذلك بطريقة جميلة في قوله: " لا يتوقف ويحبس أمر طلبته بربك، ولا يتيسر ويسهل أمر طلبته بنفسك ".

قُذف ابراهيم عليه السلام في النار. عافانا الله من مثل هذا الموقف. لكن لا يوجد شخص لن يُرمى في نوع من أنواع النيران المعنوية، نفسية أو اجتماعية في حياته، ويجب علينا ألا نظن للحظة أن الله تعالى غير قادر على أن يجعل هذه النيران باردة علينا. آسيا عُذبت جسديًا لكن الله سبحانه وتعالى جعلها ترى بيتها في الجنة؛ و

لهذا ابتسمت. أعيننا الطبيعية لن ترى الجنة في هذه الحياة، لكن إذا شاء الله فقد ترى بصيرة قلوبنا الجنة التي هي سكننا مع الله سبحانه وتعالى، وحينها تصبح كل صعوبة سهلة. وربما نحن كذلك، سنبتسم، في تلك الأوقات الصعبة.

إذًا المشكلة ليست في المحنة نفسها. المشكلة ليست في الجوع أو البرد، المشكلة تكمن فيها إذا كانت لدينا المعدات الضرورية التي نحتاجها عندما يأتي الجوع والبرد. فإن امتلكناها فلن يمسنا، ولن يؤلمنا جوع ولا برد. المشكلة فقط عندما يأتي الجوع، وليس لدينا طعام. المشكلة فقط عندما تأتي العاصفة الثلجية وليس لدينا ملجا.

حقًا إن الله سبحانه وتعالى يرسل المحن، لكي نتطهر ونتقوى ونرجع إليه، وفي الوقت ذاته فإن الله سبحانه وتعالى يرسل الطعام والماء والملجأ. الله سبحانه وتعالى يرسل الاختبار، ومعه يرسل الصبر - وحتى الرضا - لمقاومته. نعم الله سبحانه وتعالى أرسل آدم عليه السلام إلى هذا العالم، حيث يجب عليه أن يكافح ويواجه المحن، ولكنه وعده بالعون الإلهي. يخبرنا القرآن الكريم:﴿قَالَ اهبِطا مِنها جَميعًا بَعضُكُم لِبَعضٍ عَدُوٌّ فَإِمّا يَأتِيَنَّكُم مِنّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشقى﴾ (طه: 123)

وربما أحد الأدعية المفضلة إليّ هو دعاء الرسول صلي الله عليه وسلم وهو تنزف منه الجروح، إذ نادى ربه قائلا: (أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ, وَصَلُحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ).

حقًا، يختبر الله سبحانه وتعالى من يحب على قدر درجة إيمانه، لكن مع الاختبار، يرسل الله سبحانه وتعالى عونه الإلهي كي يصبح كل اختبار سهلًا، وتصبح كل نار باردة. ويرسل الله سبحانه وتعالى عونه الإلهي كذلك، حيث نظرة واحدة إلى نوره، وإلى الجنة التي معه تجعلنا نبتسم، حتى ونحن في وسط نيران المحنة.

الأذى من الآخرين: كيف نحتمله ونشفى

عندما كنت في مقتبل العمر، كان العالم في نظري مكانا رائعا. ولكن المشكلة الوحيدة أنه لم يكن كذلك. كنت أظن أن كل شيء يمكن أن يتم دائما بشكل " عادل " بالنسبة لي كان ذلك؛ يعني أنه لا أحد يجب أن يظلم، وإذا ظلموا، وجب أن تتحقق العدالة. حاربت بضراوة لما ينبغي أن تكون عليه الأشياء وفق اعتقادي. لكني في صراعي هذا، غفلت عن حقيقة جوهرية تتعلق بهذه الحياة، ففي مثاليتي الطفولية تعذر عليّ إدراك أن العالم في ذاته غير كامل. نحن بوصفنا بشرا، غير كاملين في ذاتنا، وبالتالي سنرتكب الأخطاء دائما. وفي ارتكابنا لهذه الأخطاء، سنؤذي الآخرين حتما، بعلمنا أو بدون علمنا، بقصد أو بدون قصد. فلن تتحقق العدالة التامة في هذا العالم.

هل هذا يعني أن نتوقف عن الصراع ضد الظلم أو نتخلى عن الحق؟ بالطبع لا، لكن هذا يعني أنه يجب علينا ألا نضع العالم - والآخرين - في معيار غير واقعي. ولكن هذا لن يكون سهلا دائما. فكيف يمكننا العيش في عالم كثير العيوب، حيث يحبطنا الناس، بما فيهم أسرتنا التي يمكن أن تكسر قلبنا؟ وربما، أصعب ما علينا فعله، هو كيف نتعلم أن نصفح عندما نُظلم؟ كيف نصبح أقوياء بدون أن نكون قساة، ونبقى لينين دون أن نكون ضعفاء؟ ومتى نتمسك ومتي

نتجاوز؟ متى يكون الاهتمام متجاوزا الحد؟ وهل هناك شيء يمكن وصفه بأنه حب أكثر مما ينبغي؟

لكي نبدأ بالإجابة عن هذه الأسئلة، يجب أولا أن نخطو خطوة خارج حياتنا. نحتاج أن نستقصي فيها إذا كنا أول أو آخر من شعر بألم أو تعرض لظلم. نحتاج أن ننظر إلى أولئك الذين سبقونا، لنتدارس صراعاتهم وانتصاراتهم. ونحتاج إلى أن نميز أن النمو لن يأتي بدون معاناة، والنجاح هو فقط ثمرة الصراع. كثيرا ما يتضمن هذا الصراع مقاومة الأذى الذي يسببه الآخرون والتغلب عليه.

استعادة الأمثلة المنيرة للرسول صلي الله عليه وسلم ستذكرنا أن ما نشعر به من ألم ليس حالة فريدة. تذكر أن النبي نوحًا عليه السلام أوذي من قومه لـ 950 سنة. يخبرنا القرآن الكريم:﴿كَذَّبَت قَبلَهُم قَومُ نوحٍ فَكَذَّبوا عَبدَنا وَقالوا مَجنونٌ وَازدُجِرَ﴾ (القمر: 9) أوذي نوح عليه السلام كثيرا حتى اضطر لمناداة ربه أخيرا:﴿أَنّي مَغلوبٌ فَانتَصِر﴾ (القمر: 10)

أو نستطيع أن نتذكر كيف أن الرسول صلي الله عليه وسلم رُمي بالحجر حتى نزف، وكيف أن أصحابه عذبوا وجُوعوا. كل هذا الأذى كان على أيدي الآخرين. حتى الملائكة أدركوا هذه السمة في طبيعة البشر من قبل أن نُخلق. فعندما أخبر الله سبحانه وتعالى الملائكة بأنه سيخلق البشرية، كان سؤالهم الأول عن قدرة البشر على إلحاق الأذى يقول تعالى:﴿وَإِذ قالَ رَبُّكَ لِلمَلائِكَةِ إِنّي جاعِلٌ فِي الأَرضِ خَليفَةً قالوا أَتَجعَلُ فيها مَن يُفسِدُ فيها وَيَسفِكُ الدِّماءَ وَنَحنُ نُسَبِّحُ

بِحَمدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قالَ إِنّي أَعلَمُ ما لا تَعلَمونَ﴾ (البقرة: 30)

إن قدرة البشرية على ارتكاب جرائم وحشية بعضهم ضد بعض؛ هي حقيقة محزنة عن واقع هذه الحياة. وعلى الرغم من ذلك؛ فالكثير منا يعد محظوظا، فمعظمنا لم يقدر له مواجهة نفس النوع من المصائب التي تحملها الآخرون عبر الزمان. فمعظمنا لم يجبروا مطلقا على مشاهدة عائلاتهم وهي تعذب وتقتل. ومع ذلك، هناك القليل منا الذين باستطاعتهم القول بأنهم لم يتعرضوا لأي أذى مطلقا؛ بطريقة أو بأخرى على يد شخص آخر. ومع أن أغلبنا لن يتعرض للإحساس بالموت جوعا أو الوقوف عاجزين أثناء تدمير بيوتنا، ولكن معظمنا سيعلم ماذا يعني أن تبكي من قلب مجروح.

هل من الممكن أن نتجنب ذلك؟ ممكن، إلى حد ما. فلن يمكننا أبدا أن نتجنب كل الآلام، لكن بتعديل توقعاتنا وردة فعلنا وتركيزنا، نستطيع أن نتجنب الكثير من الدمار. فعلى سبيل المثال، وضع كل ثقتنا واعتمادنا وأملنا في شخص آخر أمر غير واقعي، وفي غاية الحمق. ينبغي علينا أن نتذكر أن البشر غير معصومين، ومن ثم ينبغي علينا أن نضع ثقتنا التامة الكاملة - واعتمادنا وأملنا - في الله سبحانه وتعالى: يقول تعالى:﴿فَمَن يَكفُر بِالطّاغوتِ وَيُؤمِن بِاللَّهِ فَقَدِ استَمسَكَ بِالعُروَةِ الوُثقى لَا انفِصامَ لَها وَاللَّهُ سَميعٌ عَليمٌ﴾ (البقرة: 256) إدراكنا بأن الله سبحانه وتعالى هو العروة الوحيدة التي لا تنكسر، سينقذنا من الكثير من خيبات الأمل التي نحن في غنى عنها.

هذا لا يعني أنه لا ينبغي علينا أن نُحِب أو تُحِب بدرجة أقل. بل أن

أن نعرف كيف نُحِب، فينبغي أن يكون الله سبحانه وتعالى أسمى ما نُحِب. يجب ألا يأتي شيء قبله تعالى في قلوبنا، ولا ينبغي أن نتعلق بشيء أكثر منه - سبحانه - بحيث يصبح من المستحيل علينا أن نستمر في هذه الحياة بدونه. هذا النوع من الحب ليس حبًا، لكنه عبادة ولن ينتج عنه شيء سوى الألم.

لكن ماذا يحدث إذا فعلنا كل ما يتوجب علينا فعله، ومع ذلك تعرضنا إلى ألم أو أذى من الآخرين، كما هو محتم؟ كيف يمكننا أن نقوم بما هو أصعب؛ كيف يمكننا تعلم الصفح؟ كيف نتعلم تضميد جراحنا، والاستمرار بالإحسان إلى الناس، حتى وإن لم يحسنوا إلينا؟

هناك مثال جميل تمامًا عن هذه الحالة نجده في قصة أبي بكر رضي الله عنه. فبعد أن افتُري على ابنته رضي الله عنها، وجد أبو بكر نه أن أحد الذين تناقلوا تلك الشائعة هو مسطح بن أثاثة، وكان أحد أقربائه رضي الله عنه ويدعمه ماديًا. كان من الطبيعي أن يتوقف أبو بكر رضي الله عنه عن دفع الصدقة التي كان يعطيها لمسطح. ولكن بعد فترة قليلة من الزمن أنزل الله سبحانه وتعالى هذه الآية: ﴿وَلا يَأتَلِ أُولُو الفَضلِ مِنكُم وَالسَّعَةِ أَن يُؤتوا أُولِي القُربى وَالمَساكينَ وَالمُهاجِرينَ في سَبيلِ اللَّهِ وَليَعفوا وَليَصفَحوا أَلا تُحِبّونَ أَن يَغفِرَ اللَّهُ لَكُم وَاللَّهُ غَفورٌ رَحيمٌ﴾ (النور: 22) وفور ساعه لهذه الآية، حرص أبو بكر رضي الله عنه على نيل المغفرة من الله سبحانه وتعالى، فلم يكتف بماكان يعطيه سابقًا بل زاده في العطاء.

هذا النوع من التسامح هو من سجايا المؤمن، ففي وصف هؤلاء

المؤمنين، يقول الله سبحانه وتعالى:﴿وَالَّذينَ يَجتَنِبونَ كَبائِرَ الإِثمِ وَالفَواحِشَ وَإِذا ما غَضِبوا هُم يَغفِرونَ﴾ (الشورى: 37)

استعدادنا للتسامح يجب أن ينبع من إدراكنا لعيوبنا وأخطائنا تجاه الآخرين. وفوق كل شيء، يجب أن ينبع تواضعنا من حقيقة كوننا نعصي الله سبحانه وتعالى في كل يوم من حياتنا، عندما نذنب. فمن نحن مقارنة به تعالى؟ وعلى الرغم من ذلك، الله عزوجل، سيد الكون، يغفر ذنوب عباده في الليل والنهار. فمن نحن حتى نمتنع عن الصفح؟ إذا كنا نأمل أن يغفر الله سبحانه وتعالى لنا، فكيف لنا ألا نسامح الآخرين؟ لهذا السبب يعلمنا صلي الله عليه وسلم أن: (مَنْ لا يَرْحَمْ الناسَ، لا يَرْحَمْهُ اللهُ عزَّ و جلَّ) (صحيح مسلم).

أملنا هذا في تلقي رحمة الله تعالى سيدعم رغبتنا في التسامح مع الآخرين؛ ولعلنا يوما ما – برحمته تعالى - ندخل إلى العالم الوحيد الكامل حقًا.

حلم الحياة

كان حلمًا فقط. يباغتني للحظة، ولكن العذاب الذي أحس به في كابوسي وهم فقط. إنه عذاب مؤقت يحدث في طرفة عين! لكن، لماذا أحلم؟ لماذا يجب علي أن أحس بذلك الفقدان والخوف والحزن في منامي؟

إنه سؤال طرح عبر الزمان، وعلى نطاق واسع، ومن الكثير من الناس. الجواب على ذلك السؤال هو الذي حدد طريقهم إلى الإيمان أو بعيدا عنه، وفي كثير من الأحيان، فإن البت في قضايا مثل الإيمان بالله، والإيمان بوجود هدف وراء هذه الحياة، والإيمان بقوة عليا أو وجهة نهائية، اعتمد على كيفية الإجابة عن هذا السؤال الفريد. فلذلك، فإن طرح هذا السؤال هو طرح لسؤال عن الحياة بشكل جوهري.

لماذا نعاني؟ لماذا تحدث الأشياء السيئة للصالحين؟ كيف يكون هناك إله، إذا كان الأطفال الأبرياء يجوعون والمجرمون ينطلقون أحرارا؟ كيف يكون هناك إله ودود وقوي ويسمح لمثل هذه المصائب بأن تقع؟

إذا كان الله سبحانه وتعالى حقًا عادلًا ومنصفًا، ألا ينبغي أن تحدث الأشياء الحسنة للصالحين فقط، والأشياء السيئة للطالحين فقط؟

حسنا، الجواب هو: نعم. طبعًا، إن الأشياء الحسنة تحدث فقط للصالحين، والأشياء السيئة تحدث فقط للطالحين. لماذا؟ لأن الله سبحانه وتعالى هو العدل الودود، فلا نقص في علمه أو فهمه.

المشكلة تكمن فيما لدينا نحن من نقص في علمنا وفهمنا.

انظر، لكي نفهم عبارة " تحدث الأشياء الحسنة للصالحين فقط، والأشياء السيئة تحدث فقط للطالحين " يجب أن تعرف الحسن و السيئ مع أن هناك الكثير من التعريفات للحسن والسيئ بقدر ما يوجد من بشر، إلا أن هناك فهما شاملًا لكلا المصطلحين. فعلى سبيل المثال، أكثر الناس سيوافقون على أن نجاحك في الوصول إلى نتيجة أو هدف ترغب فيه، سيكون أمرا حسنا. من جهة أخرى، الفشل في الوصول إلى الهدف أو النتيجة المأمولة سيكون أمرا سيئا. فإذا كان هدفي هو زيادة وزني لأنني نحيفة جدا إلى حد الخطورة، فستكون زيادة وزني أمرا حسنًا. ومن جهة أخرى، إذا كان هدفي أن أفقد وزني لأنني بدينة لدرجة تجلب الضرر، فستكون زيادة وزني أمرا سيئًا. فالحالة نفسها قد توصف بالحسن أو السوء بناءً على هدفي المقصود. فمن ثم " الحسن " في نظري يتوقف على مدى تحقيقي لهدفي. وما هو " حسن " على الإطلاق يتوقف على مدى تحقيقي لهدفي المطلق.

لكن ما هو هدفي؟

يأخذونا هذا إلى سوال جوهري عن الهدف، وذلك لتعلقه بحقيقة

الوجود العظمى. هناك نظرتان أساسيتان مختلفتان للعالم، فيما يخص الهدف من الحياة. النظرة الأولى مبنية على أن هذه الحياة هي الحقيقة والمقصد النهائي والهدف الأساسي لسعينا. وأما النظرة الثانية فمبنية على أن هذه الحياة هي مجرد جسر، ووسيلة لا تزيد على كونها طرفة عين في سياق الوجود الأبدي لله سبحانه وتعالى. بالنسبة لأصحاب المجموعة الأولى ستكون هذه الحياة هي كل شيء. هي الغاية التي يعملون من أجلها. أما المنتمون للمجموعة الثانية، فستكون قيمة هذه الحياة أقرب للصفر. لماذا؟ لأنه مقارنة بالأزلية، حتى أكبر رقم يصبح صفرا ولا شيء أكثر من حلم عابر.

هاتان النظرتان المتميزتان للعالم هما اللتان تحددان الهدف. انظر، إذا آمن أحدنا بأن هذه الحياة هي الحقيقة، والمقصد النهائي والهدف الذي نسعى إليه، فسيكون هدفنا في هذه الحياة هو الحصول على أكبر قدر من المتعة، وتحقيق أكبر قدر من الربح. في هذا النموذج، تحصل الأشياء " السيئة " للصالحين في كل ثانية، ومن خلال هذا النموذج يصل الناس إلى خلاصة: أنه لا يوجد عدل! وبالتالي فإنه لا يوجد رب! أو أن الرب غير عادل! والعياذ بالله. مثل الشخص الذي يستنتج عدم وجود رب، لأنه رأى حلما سيئا. ولكن لماذا لا نعطي التجارب الناتجة عن أحلامنا أي وزن؟ على الرغم من أن بعض الأحلام يكون مرعبا، وغالبا ما يحصل ذلك للناس الصالحين. ألا نشعر أحيانا برعب أو سعادة شديدة في أحلامنا؟ نعم. ولكن ما أهمية كل ذلك؟

نحن لا نعطي لها وزنا، لأن تلك الأحلام إذا ما وضعت في سياق حياتنا الحقيقية فستكون لا شيء.

في النظرة الثانية للعالم (النموذج الإسلامي): الهدف من الخلق ليس هو الحصول على الحد الأقصى من المتعة أو الربح في هذه الحياة؛ فهي ليست أكثر من مجرد حلم. في هذه النظرة للعالم يبين الله سبحانه وتعالى الهدف من هذه الحياة بقوله:﴿وَما خَلَقتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلّا لِيَعبُدونِ﴾ (الذاريات: 56)

من الضروري ملاحظة التركيب الخاص لهذه العبارة والتي تبدأ بالنفي:﴿وَما خَلَقتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلّا﴾ يبدأ الله سبحانه وتعالى بنفي كل الأهداف قبل أن يذكر الهدف الوحيد: ﴿لِيَعبُدونِ﴾ ما سبق يعني: كوني مؤمنة يجعلني أعلم بأنه لا يوجد هدف لوجودي غير معرفة الله سبحانه وتعالى وحبه والتقرب منه سبحانه. هذا هو السبب الوحيد لوجودي، وهذه هي أهم حقيقة يتوجب عليّ إدراكها، لأنها تحدد كل شيء آخر، أقوم به أو أؤمن به. هذه الحقيقة تحدد كل شيء حولي، وكل خبرة أكتسبها في حياتي.

وبالعودة إلى معنى " الحسن " و" السيئ " سنجد أن كل شيء يقربنا إلى هدفنا الأسمى هو حسن، وكل شيء يبعدنا عن هدفنا الأسمى هو سيئ، من وجهة النظر الجوهرية. أما من وجهة النظر النسبية، فبالنسبة لهؤلاء الذين هدفهم هو هذا العالم المادي، ستكون الأشياء المادية هي التي تحدد ما هو حسن وما هو سيئ. فالحصول على الغنى والمرتبة والشهرة والعقارات، حتما، سيعد من

الأشياء " الحسنة " وبالمقابل فإن فقدان الغنى والمرتبة والشهرة والعقارات، حتما سيعد من الأشياء السيئة. وبالتالي في هذا النموذج، إذا فقد شخص بريء كل ما في حوزته من ممتلكات، فسيكون هذا شيئا " سيئا " يحدث لشخص " صالح ". لكن هذا هو الوهم الذي يأتي من نظرة مغلوطة للعالم، فعندما تكون العدسة نفسها معيبة، كذلك سيكون حال الصورة التي سترى من خلالها.

بالنسبة لأصحاب النظرة الثانية للعالم، فإن أي شيء يقربنا لهدفنا المتمثل في القرب من الله سبحانه وتعالى، فهو حسن، وكل شيء يبعدنا عن ذلك الهدف فهو سيئ. لذلك، قد يكون ربحي لمليار دولار أسوأ مصيبة تحصل لي إذا أبعدتني من الله، هدفي الأسمى. على صعيد آخر فإن خسارتي لوظيفتي وكل ثروتي، وحتى إصابتي بالمرض قد تكون أعظم نعمة منحت لي، إذا كانت تقربني إلى الله، هدفي الأسمى. هذه هي الحقيقة التي تحدث عنها القرآن الكريم في قوله تعالى:﴿كُتِبَ عَلَيكُمُ القِتالُ وَهُوَ كُرهٌ لَكُم وَعَسى أَن تَكرَهوا شَيئًا وَهُوَ خَيرٌ لَكُم وَعَسى أَن تُحِبّوا شَيئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُم وَاللَّهُ يَعلَمُ وَأَنتُم لا تَعلَمونَ﴾ (البقرة: 216) فبوصفي مؤمنة، معياري لم يعد الربح و الخسارة من الناحية المادية. معياري شيء أسمى. معياري شيء أعلى. ما أملك وما لا أملك من الناحية المادية مهم فقط بدرجة تقريبي أو إبعادي عن هدفي: الله سبحانه وتعالى. تصبح هذه الدنيا لا شيء أكثر من حلم عشته للحظة ثم صحوت منه، وكون هذا الحلم سيئا أو حسنا يتوقف على ما تكون عليه حالتي عندما أصحو.

وبالتالي فبحسب المقياس الجوهري هنالك عدالة تامة، فإن الله سبحانه وتعالى يعطي الشيء الحسن (القرب منه) للصالحين، والشيء السيئ (البعد عنه) للطالحين. فالحسن الأعظم هو القرب من الله سبحانه وتعالى، في هذه الحياة وفي الآخرة. الصالحون فقط يمنحون هذه النعمة، ولهذا قال الرسول صلي الله عليه وسلم: (عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، أَنْ امُرَهُ كُلُّهُ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، أَنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ فَشَكَرَ كَانَ لَهُ خَيْرٌ، وَإِنْ أَصَابَهُ شَرٌّ فَصَبَرَ كَانَ لَهُ خَيْر) (صحيح مسلم).

يبين هذا الحديث أن الشيء الحسن أو السيئ لا يعرف بالظاهر. ما هو حسن - كما بين هذا الحديث - يعرف بحالة الحسن الداخلية التي تنتج من: الصبر والامتنان، وكلاهما تجسيد لإحساس الأمان مع الله سبحانه وتعالى والقرب منه.

بالمقابل، الكارثة العظمى هي البعد عن الله سبحانه وتعالى، في هذه الحياة وفي الآخرة. والطالحون فقط هم من يعاقبون بهذا، ما يملكه أو ما لا يملكه هؤلاء " المبعدون " من مال أو مركز أو ملك أو شهرة هو عبارة عن وهم، ليس أكثر واقعية أو أهمية من حيازة أو عدم حيازة هذه الأشياء في أعظم حلم أو أسوأ كابوس. يقول الله سبحانه وتعالى عن هذه الأوهام:﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَينَيكَ إِلى ما مَتَّعنا بِهِ أَزواجًا مِنهُم زَهرَةَ الحَياةِ الدُّنيا لِنَفتِنَهُم فيهِ وَرِزقُ رَبِّكَ خَيرٌ وَأَبقى﴾ (طه: 131) الحياة الأبدية هي التي تبدأ حينها نستيقظ من هذا العالم، وفي هذه اليقظة سندرك .. أنه كان مجرد حلم.

أبواب مؤصدة والأوهام التي تعمينا

البارحة أراد ابني - الذي يبلغ من العمر اثنين وعشرين شهرا - أن يمارس استقلاله. بعد تسلقه خارجًا من مقعده في السيارة، أراد أن يغلق بابها متشبها بالكبار، فوقفت أراقبه، مدركة بأني إذا تركته ليغلق الباب، فسيضرب رأسه الصغير بعنف، فرفعته بعيدا وأغلقت الباب بنفسي. أحبطه فعلي هذا، فأجهش بالبكاء. كيف لي أن أمنعه من فعل ما أراد بإلحاح؟

عند مشاهدتي لهذه الحادثة خطرت على بالي فكرة غريبة. تذكرت كل المواقف المتشابهة لنا في هذه الحياة، عندما نريد شيئا بإصرار، ولا يسمح الله سبحانه وتعالى لنا بأخذه. ذُكرت بكل الأوقات التي شعرنا فيها - كبالغين - بنفس الإحباط، عندما لا تسير الأمور كما نريد. وفجأة، أصبح الأمر عندي واضحا جدا. أبعدت ابني عن الباب كي أحميه فقط. ولكنه كان جاهلًا؛ ففي أثناء نحيبه، كان يجهل أني بفعلي هذا قد أنقذته في الواقع. ومثلما بكى ابني بسذاجة وبراءة، كثيرا ما تحسرنا على أحداث كانت في الحقيقة سببا في إنقاذنا.

- فعلى سبيل المثال، عندما تفوتنا طائرة، أو نفقد عملا أو نجد أنفسنا غير قادرين على الزواج من الشخص الذي نريده، هل توقفنا للتفكير في احتمالية كون ذلك في صالحنا؟ يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿وَعَسى أَن تَكرَهوا شَيئًا وَهُوَ خَيرٌ لَكُم وَعَسى أَن تُحِبّوا شَيئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُم وَاللَّهُ يَعلَمُ وَأَنتُم لا تَعلَمونَ﴾ (البقرة: 216).

ومع ذلك بات من الصعب جدا النظر إلى ما وراء ظاهر الأشياء. ستحتاج إلى قوة عظيمة لكي ترى ما وراء الوهم، إلى الحقيقة الأعمق، والتي ربما نفهمها أو لا نفهمها؛ مثلا لم يفهم ابني عندما منعته من فعل ما أراده بإلحاح، ففي تلك اللحظة كنت في الحقيقة أبعد عنه الأذى. نحن في أغلب الأحيان عميان كذلك.

ونتيجة لعمانا هذا، ينتهي بنا الأمر إلى النظر باستمرار إلى الأبواب الموصدة في حياتنا، وننشغل عن ملاحظة الأبواب التي فتحت؛ فعندما لا نتمكن من الزواج من الشخص الذي يشغل بالنا، نعمى عن رؤية من هو حقا أفضل لنا، اذا لم نكن على استعداد للنظر إلى ماوراء ذلك. عندما لا نحصل على عمل أو نفقد شيئا عزيزا علينا، يصعب علينا أخذ خطوة إلى الوراء والنظر إلى الصورة الكاملة. فكثيرا ما يأخذ الله منا أشياء ليستبدل بها ما هو أعظم.

حتى المأساة قد تحصل بهذه الطريقة. لا يستطيع شخص ما أن يتصور مأساة أكثر إيلاما من فقدان طفل، ومع ذلك، حتى هذا الفقدان قد يحدث كي ينقذنا ويمنحنا شيئا أعظم. قال الرسول صلي الله عليه وسلم: (إِذَا مَاتَ وَلَدُ الْعَبْدِ قَالَ اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ: قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ. فَيَقُولُ: قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِي؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ. فَيَقُولُ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ.

فَيَقُولُ اللَّهُ: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ، وَسَمُّوهُ بَيْتَ الْحَمْدِ) (جامع الترمذي)

فعندما يأخذ الله سبحانه وتعالى منا شيئا تحبه بشدة كولدنا، فقد يكون أخذه ليمنحنا شيئا أفضل. وربما يكون هذا الفقدان سببا لدخولنا الجنة، وحياة أبدية مع طفلنا الذي فقدناه. وخلافا لحياتنا هنا، فإنها حياة أبدية، حيث لا يشعر طفلنا بألم ولا خوف ولا مرض.

أما في هذه الحياة المادية، فحتى إصابتنا بالمرض قد لا تكون مثلا تبدو عليه حقا، فمن خلالها قد ينقينا الله سبحانه وتعالى من ذنوبنا، فعندما أصابت الرسول صلي الله عليه وسلم حمى شديدة، قال: (مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى شَوْكَةٌ فَمَا فَوْقَهَا، إِلَّا كَفَرَ اللَّهُ بِهَا سَيِّئَاتِهِ، كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا) (صحيح البخاري).

وفي حديث آخر، وضح الرسول صلي الله عليه وسلم أن هذا يشمل الحزن والقلق أيضا. قال صلي الله عليه وسلم: (مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصْبٍ وَلَا وَصْبٍ، وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ، وَ لَا أَذًى وَلَا غَمٍّ حَتَّى الشَّوْكَةُ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ) (صحيح البخاري).

ويمكننا أن نأخذ، على سبيل المثال، الفقر! أكثر الناس الذين لا يملكون المال، لايرون فقرهم نعمة. لكن، بالنسبة لمن كان حول قارون، كان نعمة. عاش قارون في زمن النبي موسى عليه السلام وهبه الله ثروة عظيمة، وكانت مفاتيح كنوزه هي بحد ذاتها ثروة، يقول الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم:

﴿فَخَرَجَ عَلى قَومِهِ في زينَتِهِ قالَ الَّذينَ يُريدونَ الحَياةَ الدُّنيا يا لَيتَ لَنا مِثلَ ما أوتِيَ قارونُ إِنَّهُ لَذو حَظٍّ عَظيمٍ﴾ (القصص: 79).

لكن تلك الثروة جعلت قارون متكبرا، كافرا بالنعمة عاصيًا الله سبحانه وتعالى. قال تعالى:﴿فَخَسَفنا بِهِ وَبِدارِهِ الأَرضَ فَما كانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرونَهُ مِن دونِ اللَّهِ وَما كانَ مِنَ المُنتَصِرينَ وَأَصبَحَ الَّذينَ تَمَنَّوا مَكانَهُ بِالأَمسِ يَقولونَ وَيكَأَنَّ اللَّهَ يَبسُطُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ مِن عِبادِهِ وَيَقدِرُ لَولا أَن مَنَّ اللَّهُ عَلَينا لَخَسَفَ بِنا وَيكَأَنَّهُ لا يُفلِحُ الكافِرونَ﴾ (القصص: 81 - 82) بعد رؤية مصير قارون، ونهايته أصبح الناس الذين تمنوا أن تكون لهم ثروة مثل ثروته ممتنين لأن الله سبحانه وتعالى حفظهم؛ بحرمانهم منها.

ولكن ربما لا يوجد مثال أفضل لهذا الدرس من قصة موسى والخضر عليهما السلام التي ذكرت في سورة الكهف. عندما سافر موسى عليه السلام مع الخضر عليه السلام (يقول المفسرون إنه كان ملكا على صورة بشر) أدرك موسى عليه السلام أن الأشياء في أغلب الأحيان ليست كما تبدو، وأن حكمة الله سبحانه وتعالى لا تدرك أحيانا من ظاهرها. وصل الخضر والنبي موسى عليها السلام إلى مدينة ما، وعندئذ بدأ الخضر بإعطاب قوارب الناس، في الظاهر كان هذا الفعل يبدو مؤذيا لملاك القوارب الفقراء؛ لكن بيَن الحضر عليه السلام لاحقا أنه كان بفعله هذا يحميهم ويحفظ لهم قواربهم. يقول الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم:

﴿قالَ هذا فِراقُ بَيني وَبَينِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأويلِ ما لَم تَستَطِع عَلَيهِ صَبرًا

أَمَّا السَّفينَةُ فَكانَت لِمَساكينَ يَعمَلونَ فِي البَحرِ فَأَرَدتُ أَن أَعيبَها وَكانَ وَراءَهُم مَلِكٌ يَأخُذُ كُلَّ سَفينَةٍ غَصبًا﴾ (الكهف: 79 - 78).

فبإعطابه قواربهم، حمى الخضر عليه السلام الناس؛ حيث جعل قواربهم غير مرغوبة للملك الذي كان يأخذ القوارب غصبًا. وهذا ما يحدث أحيانا في هذه الحياة؛ فمن أجل إنقاذنا، يؤخذ منا شيء، أو يمنح لنا بطريقة لا نرغب فيها، ولكن بالنسبة لنا - كما بدت لطفل يبلغ من العمر اثنين وعشرين شهرا - يبدو الأمر وكأنه باب موصد فقط.

الألم، والفقدان والطريق إلى الله

ما زلت أتذكر اليأس! ففي خيبة الأمل العميقة والتي تأتي في أكثر الأحيان بعد مراجعة للنفس توجهت إلى خالقي متضرعة. توجهت متوسلة، لكن ليس رغبة فيما يمكن أن يقاس أو يشترى أو يباع أو يقايض، بل رغبة في عملة أكثر مصداقية. ومع تجلي عيوبي لي، أصبحت بحاجة ملحة إلى التحرر من طغيان نفسي. أصبحت بحاجة ملحة إلى أن أصبح شخصا أفضل.

ومن ثم قدمت قلبي إلى الله سبحانه وتعالى، ودعوته لعلي اتطهر. وعلى الرغم من إيماني الراسخ بأن الله سميع لدعاء، لم أكن أتصور أبدا، متى - أو كيف - ستستجاب هذه الدعوة.

وبعد ذلك الدعاء بقليل، واجهت واحدة من أصعب التجارب في حياتي. وخلال هذه التجربة، أعددت نفسي، ودعوت طالبة للهداية والقوة. لكني لم أرَ أبدا أي رابط بين دعائي هذا ودعائي السابق. ولم أدرك ذلك إلا بعد مرور فترة من الزمن، بعد استرجاعي تلك التجربة تبيَن لي كم نضجت، وفجأة تذكرت دعائي الأول، وحينها أحسست أن تلك الشدة التي مررت بها كانت جواباً لذاك الدعاء.

كلمات جلال الدين الرومي التي تصف تلك الحالة بشكل جميل:
(عندما يضرب أحدنا السجادة بقطعة من الخشب، فليس قصده

ضرب السجادة، إنما قصده نفض الغبار عنها. نفسك مليئة بالغبار المتراكم من حجاب الأنا، وهذا الغبار لا يمكن نفضه مرة واحدة. مع كل قسوة وكل ضربة ينفض الغبار شيئا فشيئا عن وجه القلب، أثناء نومنا أحيانا، وخلال صحوتنا في أحيان أخرى).

كثيرا ما تمر بنا تجارب في هذه الحياة، ولا نرى الرابط بينها. فعندما نواجه صعوبة أو نشعر بألم، كثيرا ما نفشل في أخذه بعين الاعتبار أن هذه التجربة قد تكون السبب المباشر أو النتيجة لتصرف أو تجربة أخرى. أحيانا لا نستطيع أن ندرك الصلة المباشرة بين معاناتنا في الحياة وعلاقتنا مع الله سبحانه وتعالى.

ذلك الألم، وتلك المحن، تخدم أغراضا كثيرة في حياتنا، فأوقات الشدائد في هذه الحياة يمكن أن تكون مثل إشارة تنبيه، فضلا عن كونها علاجًا لعلاقتنا المنقطعة مع خالقنا.

في أوقات الشدائد يختبر إيماننا وشجاعتنا وقوتنا. ففي أثناء هذه الأوقات، يصبح مستوى إيماننا جليا، فالمحن تنزع أقنعتنا، وتكشف حقيقة إيماننا، والشدائد تميز بين من كانت شهادة إيمانه حقيقية، ومن كانت شهادته مزورة.

يقول الله سبحانه وتعالى:﴿أَحَسِبَ النّاسُ أَن يُترَكوا أَن يَقولوا آمَنّا وَهُم لا يُفتَنونَ وَلَقَد فَتَنَّا الَّذينَ مِن قَبلِهِم فَلَيَعلَمَنَّ اللَّهُ الَّذينَ صَدَقوا وَلَيَعلَمَنَّ الكاذِبينَ﴾ (العنكبوت: 3 - 2).

إن الصعوبات هي اختبار لنا وقد تكون نعمة وعلامة على حب الله

سبحانه وتعالى لمن ابتُلي. يقول الرسول صلي الله عليه وسلم: (إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا) (صحيح البخاري).

ومع ذلك لا يستطيع الكثير منا أن يفهم كيف أن الشدائد قد تكون نعمة. والكثير لا يستطيع أن يوقن بأن الشدائد هي في الحقيقة وسيلة للتطهير والتنقية؛ وهي التي ترجع الناس إلى ربهم. فماذا يحدث لمتغطرس عندما يوضع فجأة في موقف لا يستطيع التحكم به؟ ماذا يحدث لرجل وجد نفسه عديم الحيلة في محيط، ووسط عاصفة ؟ ماذا يحدث عندما تصبح السفينة - التي لا يمكن إغراقها - مآلها كحكاية سفينة التيتانيك؟

هذه الشدائد - كما نتصورها نحن - هي في حقيقة الأمر مكالمات تنبيه من السبات، تجعلنا أكثر تواضعا، وتهزنا وتذكرنا بضآلتنا وبعظمة الله سبحانه وتعالى. وبهذه الطريقة توقظنا هذه الشدائد من غفوتنا وطيشنا وتشتتنا، وترجعنا إلى خالقنا. فالشدائد تنزع غطاء الراحة عن أعيننا؛ وتذكرنا بمن نكون وأين نحن ذاهبون.

يقول الله سبحانه وتعالى:﴿وَبَلَوناهُم بِالحَسَناتِ وَالسَّيِّئاتِ لَعَلَّهُم يَرجِعونَ﴾ (الأعراف: 168) ويبين الله سبحانه وتعالى:﴿وَما أَرسَلنا في قَريَةٍ مِن نَبِيٍّ إِلّا أَخَذنا أَهلَها بِالبَأساءِ وَالضَّرّاءِ لَعَلَّهُم يَضَّرَّعونَ﴾ (الأعراف: 94)

هذا درس في التواضع ينقي الروح البشرية، الى درجة أن الله سبحانه وتعالى يواسي المؤمنين في القرآن الكريم مؤكدا لهم؛ أن أي

ألم يصيبهم، المراد منه رفعهم وتشريفهم. يقول سبحانه وتعالى:﴿إِن يَمسَسكُم قَرحٌ فَقَد مَسَّ القَومَ قَرحٌ مِثلُهُ وَتِلكَ الأَيّامُ نُداوِلُها بَينَ النّاسِ وَلِيَعلَمَ اللَّهُ الَّذينَ آمَنوا وَيَتَّخِذَ مِنكُم شُهَداءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظّالِمينَ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذينَ آمَنوا وَيَمحَقَ الكافِرينَ أَم حَسِبتُم أَن تَدخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمّا يَعلَمِ اللَّهُ الَّذينَ جاهَدوا مِنكُم وَيَعلَمَ الصّابِرينَ﴾ (آل عمران: 142 - 140).

إن هذه المعركة لتمحيص النفس هي جوهر طريق التسامي إلى الله سبحانه وتعالى والذي يبدأ بالتضحية بالذات، ويمهد بعرق الكفاح. إنه ذلك الطريق الذي يصفه الله سبحانه وتعالى بقوله:﴿يا أَيُّهَا الإِنسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدحًا فَمُلاقيهِ﴾ (الانشقاق: 6).

كيفية تجاوب المؤمن مع الشدائد

بالنسبة للمسلمين، هذا هو زمن الاضطرابات، لذلك في كثير من الأحيان من الصحب أن الا نشعر باليأس. الكثير منا يتساءل، لماذا يحدث هذا لنا ؟ كيف يمكن أن يحدث هذا لنا ونحن لم نخطئ؟ كيف يمكن لنا أن نواجه الكثير من التمييز في البلد ذاته الذي أقيم على " الحرية " و " المساواة " و" العدالة " للجميع؟

على الرغم من كون هذه الخواطر طبيعية، فإننا نحتاج إلى النظر إلى ما وراءها. نحتاج إلى أن ننظر عبر الوهم للحظة، إلى الحقيقة الكامنة وراءه. علينا أن نعيد تركيز رؤيتنا، إذا كان لنا أن نرى الحقيقة من وراء الهولوغرام. هذه الحقيقة هي واحدة من أكثر الدروس المكررة في القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة. هذه الحقيقة الجوهرية هي: كل ما في هذه الدنيا امتحان. يقول الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم:﴿الَّذي خَلَقَ المَوتَ وَالحَياةَ لِيَبلُوَكُم أَيُّكُم أَحسَنُ عَمَلًا وَهُوَ العَزيزُ الغَفورُ﴾ (الملك: 2)

أُخبرنا أن الهدف الأساسي من خلق الحياة والموت هو: اختبارنا. فكر للحظة بصفارة الإنذار. ما هو الهدف منها؟ الصفارة هي إشارة تحذير من أن هنالك شيئا مؤذيا سيأتي. بالطبع ستصاب بالرعب إذا سمعت صوتها ولكن ماذا يحدث عندما يتم تشغيل الصفارة لاختبار

فاعليتها؟ ماذا يحدث عندما يكون تشغيلها مجرد تدريب فقط، لمعرفة مقدار استجابتنا؟ صوت صفارة الإنذار عند اختبارها هو الصوت ذاته تماما، ولكنه " مجرد اختبار " مع أنه في ظاهره يعطي صوتا وإحساسًا حقيقيين، إلا أنه ليس كذلك. هو مجرد اختبار فقط. وتذكر بذلك المرة تلو الأخرى خلال الاختبار.

هذا تماما ما يخبرنا به الله سبحانه وتعالى عن هذه الحياة. إنها تبدو - شكلا وصوتا وشعورا - حقيقية، حقيقية جدا. أحيانا ستخيفنا، وأحيانا ستجعلنا نبكي، أحيانا أخرى ستجعلنا نهرب بدلا من أن نقف بثبات في أماكننا، ولكن هذه هي الحياة وكل ما فيها مجرد اختبار. إنها في الواقع ليست حقيقية. فهي مثل ذلك الاختبار الذي أجري لصفارة الإنذار؛ إنها تدربنا على ما هو حقيقي، فهي تدربنا للاستعداد للحقيقة التي تكمن وراء صفارة الإنذار.

الآن، ماذا يحدث إذا كان اختبار صفارة الإنذار غير مفاجئ ؟ ماذا لو أعطي كل منزل إشعارا بوقت مجيء الاختبار ؟ فكر للحظة ببلاغ الله سبحانه وتعالى:﴿لَتُبلَوُنَّ في أَموالِكُم وَأَنفُسِكُم وَلَتَسمَعُنَّ مِنَ الَّذينَ أوتُوا الكِتابَ مِن قَبلِكُم وَمِنَ الَّذينَ أَشرَكوا أَذًى كَثيرًا وَإِن تَصبِروا وَتَتَّقوا فَإِنَّ ذلِكَ مِن عَزمِ الأُمورِ﴾ (آل عمران: 186)

الآن تخيل، فضلا عن هذه البلاغات، أننا قد أُعلمنا عن مجتمعات لا تعد ولا تحصى مرت باختبارات مشابهة يقول الله سبحانه وتعالى:﴿أَم حَسِبتُم أَن تَدخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمّا يَأتِكُم مَثَلُ الَّذينَ خَلَوا مِن قَبلِكُم مَسَّتهُمُ البَأساءُ وَالضَّرّاءُ وَزُلزِلوا حَتّى يَقولَ الرَّسولُ

وَالَّـذيـنَ آمَـنوا مَـعَهُ مَتى نَصرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصرَ اللَّهِ قَـريـبٌ﴾ (الـبقرة: 214)

هنا، لم يتم التنبؤ بصفارة الإنذار فحسب، بل عرفنا أنها ليست حدثا جديدا. افترض أن مجتمعنا أُخبر بأنه ليس استثناء من القاعدة. بعد كل هذا، كيف ستكون استجابتنا عند انطلاق صفارة الإنذار؟ بالطبع، إذا كانت لغرض التدريب، فلن تكون هناك حالة من الصدمة أو عدم التصديق، ولن نهلع أو نحبط.

لكننا على الرغم من ذلك نتجاوب مع صفارة الإنذار.

وهنا يكمن الجزء المهم من المسألة. من الذي نتجاوب لأجله؟ من الذي يختبرنا؟ من الذي يراقبنا حقا؟ (سي إن إن) (سي- سبان) أو الشعب الأمريكي؟ لا. جميعهم جزء من الوهم؛ جميعهم جزء من الاختبار. نحن نتجاوب لحكم واحد وحكم واحد فقط. نتجاوب لأجل الواقع الحقيقي الوحيد (الله الحق). نتجاوب لأننا نعرف بأنه يراقبنا، وهو الوحيد الذي سوف يكون حكما لهذا الاختبار عندما ندرك هذه الحقيقة الجوهرية سيحدث شيء مذهل. حالما نستوعب أنه فقط اختبار، ستتغير أسئلتنا تماما. فبدلا من طرح سؤال: (لماذا يمكن لهذا أن يحدث؟) (لماذا لم يتم هذا الأمر بعدالة؟) ستصبح أسئلتنا: (كيف ستكون استجابتي؟) (كيف يمكنني اجتياز هذا الاختبار؟) (ما الذي يتحتم عليّ تعلمه؟) (كيف لي أن أرى ما وراء هذا الوهم، إلى خالق الشخص الذي يؤذيني والشخص الذي يظلمني، والى ما وراء هذا الاختبار نفسه؟) (كيف لنا - كمجتمع - أن

نـجعل مـن هـذا الاخـتبار وسـيلة تـقربـنا إلى مـقصدنـا الأخير، الله؟) (كـيف لـنا أن نسـتخدم هـذا الاخـتبار كي نـحقق الهـدف الـذي وضـع الاختبار من أجله: أداة تجعلنا أقرب إلى الله؟) الله أكبر.

مـا هـو جـميل في اخـتبارات الله سـبحانـه هـو أنـه بـعد إعـلامـنا بقدومها، يعطينا الـوصفة الـدقيقة لاجتياز تلك الاخـتبارات بنجاح: الصبر والتقوى.

يـقول الله سـبحانـه وتـعالى: ﴿وَمَـا الـحَياةُ الـدُّنـيا إِلّا مَـتاعُ الـغُرورِ لَـتُبلَوُنَّ في أَمـوالِـكُم وَأَنـفُسِكُم وَلَـتَسمَعُنَّ مِـنَ الَّـذيـنَ أوتُـوا الـكِتابَ مِـن قَـبلِكُم وَمِـنَ الَّـذيـنَ أَشـرَكوا أَذًى كَـثيرًا وَإِن تَـصبِروا وَتَـتَّقوا فَـإِنَّ ذلِـكَ مِـن عَزمِ الأُمورِ﴾ (آل عمران: 186 - 185)

وفي آيـة أخـرى، يـؤكـد الله سـبحانـه وتـعالى على هـذيـن العنصرين الضروريين لـتجنب كل ضرر يـنتج عـما يـحاك ضـدنـا مـن مـكائـد: ﴿إِن تَـمسَسكُم حَـسَنَةٌ تَـسُؤهُـم وَإِن تُـصِبكُم سَـيِّئَةٌ يَـفرَحـوا بِـها وَإِن تَـصبِروا وَتَـتَّقوا لا يَضُرُّكُم كَـيدُهُـم شَـيئًا إِنَّ اللَّـهَ بِـما يَـعمَلونَ مُـحيطٌ﴾ (آل عمران: 120)

ومن ضمن كراسة إرشاداتنا للنجاح في مواجهة تلك المحن، يخبرنا الله سبحانه وتعالى عن كيفية تجاوب أسلافنا عند اختبارهم: ﴿الَّذينَ قالَ لَهُمُ النّاسُ إِنَّ النّاسَ قَد جَمَعوا لَكُم فَاخشَوهُم من فَزادَهُم إيمانًا وَقالـوا حَسبُنَا اللَّهُ وَنِـعمَ الـوَكيلُ فَـانـقَلَبوا بِنِعمَةٍ مِـنَ اللَّهِ وَفَـضلٍ لَـم يَمسَسهُم سوءٌ وَاتَّبَعوا رِضوانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذو فَضلٍ عَظيمٍ إِنَّما ذلِكُمُ

الشَّيطانُ يُخَوِّفُ أَولِياءَهُ فَلا تَخافوهُم وَخافونِ إِن كُنتُم مُؤمِنينَ﴾ (آل عمران: 175 - 173)

في آيات أخرى يخبرنا الله سبحانه وتعالى:﴿وَكَأَيِّن مِن نَبِيٍّ قاتَلَ مَعَهُ رِبِّيّونَ كَثيرٌ فَما وَهَنوا لِما أَصابَهُم في سَبيلِ اللَّهِ وَما ضَعُفوا وَما استَكانوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصّابِرينَ وَما كانَ قَولَهُم إِلّا أَن قالوا رَبَّنَا اغفِر لَنا ذُنوبَنا وَإِسرافَنا في أَمرِنا وَثَبِّت أَقدامَنا وَانصُرنا عَلَى القَومِ الكافِرينَ فَآتاهُمُ اللَّهُ ثَوابَ الدُّنيا وَحُسنَ ثَوابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ المُحسِنينَ يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنوا إِن تُطيعُوا الَّذينَ كَفَروا يَرُدّوكُم عَلى أَعقابِكُم فَتَنقَلِبوا خاسِرينَ بَلِ اللَّهُ مَولاكُم وَهُوَ خَيرُ النّاصِرينَ﴾ (آل عمران: - 146 150)

يبلغنا الله سبحانه وتعالى هذه القصص كي نتعلم من تجارب من خلا قبلنا، وكان تجاوبهم:﴿حَسبُنَا اللَّهُ وَنِعمَ الوَكيلُ﴾، كذلك كان: ﴿رَبَّنَا اغفِر لَنا ذُنوبَنا وَإِسرافَنا في أَمرِنا وَثَبِّت أَقدامَنا وَانصُرنا عَلَى القَومِ الكافِرينَ﴾. لم يأت تجاوبهم من النظر إلى الاختبار نفسه بل كان نابعًا من النظر إلى ما وراءه. نظروا عبر الوهم وركزوا على ما وراءه: الله! أيقنوا أن الله: لم يكن هو معطى الاختبار فحسب، بل كان هو وحده من يمكن أن ينقذهم منه. ومن ثم، تضرعوا إليه ملتمسين العون من خلال الاستغفار والصبر والتقوى.

وما يطمين المؤمنين أكثر؛ أن الله سبحانه وتعالى يعزيهم ويعدهم بالتوفيق:﴿وَلا تَهِنوا وَلا تَحزَنوا وَأَنتُمُ الأَعلَونَ إِن كُنتُم مُؤمِنينَ إِن يَمسَسكُم قَرحٌ فَقَد مَسَّ القَومَ قَرحٌ مِثلُهُ وَتِلكَ الأَيّامُ نُداوِلُها بَينَ

النّاسِ وَلِيَعلَمَ اللَّهُ الَّذينَ آمَنوا وَيَتَّخِذَ مِنكُم شُهَداءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظّالِمينَ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذينَ آمَنوا وَيَمحَقَ الكافِرينَ أَم حَسِبتُم أَن تَدخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمّا يَعلَمِ اللَّهُ الَّذينَ جاهَدوا مِنكُم وَيَعلَمَ الصّابِرينَ﴾ (آل عمران: 142 - 139)

عندما نغير العدسة التي نرى من خلالها حياتنا، ستتغير ردود أفعالنا الداخلية والخارجية بشكل كبير. فعندما اختبر أسلافنا الصالحون، لم يزدهم ذلك إلا إيمانا وطاعة. يروي لنا القرآن الكريم:

﴿وَلَمّا رَأَى المُؤمِنونَ الأَحزابَ قالوا هذا ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسولُهُ وَما زادَهُم إِلّا إيمانًا وَتَسليمًا﴾ (الأحزاب: 22)

ولكن إلى أن نغير تلك العدسة، لن نستطيع النظر إلى ما وراء السؤال الذي سبق طرحه (لماذا يحدث لنا هذا؟) ولن نستطيع إدراك الهدف الحقيقي من الاختبار نفسه: أداة خلقت كي تطهرنا، وتقوينا وتقربنا إلى خالقك، وخالقي وخالق كل أعدائنا.

هذه الحياة: سجن أم فردوس؟

كنت في المطار واقفة في طابور التفتيش أنتظر مراسيم استجوابي وبينما أنا واقفة هناك، لفتت نظري طفلة مع أمها. كانت البنت تبكي وكان من الواضح أنها مريضة. مدت الأم يدها إلى الحقيبة كي تعطي البنت شيئا من الدواء. صدمني ماكانت تبدو عليه الطفلة من بؤس، وفجأة أدركت شيئا! شعرت بأنني أنظر إلى شخص حبيس؛ هذه الروح البريئة النقية كانت أسيرة لجسم دنيوي، يتحتم عليه أن يمرض، ويتألم ويعاني.

عندها تذكرت حديث الرسول صلى الله عليه وسلم الذي قال فيه: (الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ) (صحيح مسلم) ولأول مرة فهمته بطريقة مختلفة تماما عن فهمي له سابقا. أتوقع أن الكثير من الناس يسيء تفسير هذا الحديث ويفهمه على أساس: أن الكفار يمتعون أنفسهم في هذه الحياة، بينما يتقيد المؤمنون بالحلال والحرام فيها، وعليهم أن ينتظروا الحياة الآخرة كي يتمتعوا. وربما يعتقد بعضهم أن الحديث يعني أن هذه الحياة هي بؤس للمؤمن ونعيم للكافر.

ولكنني لا أعتقد ذلك أبدا.

وفجأة شعرت وكأنني أرى حقيقة هذا الحديث في هذه البنت

الصغيرة. وكأني رأيت روحا مأسورة لأنها تنتمي لعالم آخر - عالم أفضل - حيث لا مرض ولا معاناة.

لكن ماذا يحدث إذا حصل العكس؟ ماذا يحدث عندما تتخيل هذه الروح بأنها حقا في جنة؟ عندها هل تود هذه الروح أن تكون في مكان آخر؟ مكان أفضل؟ لا، إنها تماما في المكان الذي تود أن تكون فيه. لتلك الروح، لا يوجد شيء " أفضل " مما هي فيه الآن، فحينما تتخيل وجودك في مكان رائع، فإنك لن تحن إلى شيء آخر، ولن تتمنى شيئا أكثر، وستكون راضيا قانعًا بما أنت فيه. هذه هي حالة الكافر. يقول الله سبحانه وتعالى:﴿إِنَّ الَّذينَ لا يَرجونَ لِقاءَنا وَرَضوا بِالحَياةِ الدُّنيا وَاطمَأَنّوا بِها وَالَّذينَ هُم عَن آياتِنا غافِلونَ﴾ (يونس: 7).

بالنسبة لهذه الروح غير المؤمنة؛ هذا العالم الحتمي المؤلم، والمحبط، والمؤقت، هو جنتها، هو كل ما تعرفه. تصور إذا كان هذا العالم الذي يتحتم عليك أن تسقط فيه وتنزف و تموت - هو الجنة الوحيدة التي تعرفها. تصور الم ذلك الشعور.

الشخص الذي لا يؤمن بوجود أي مكان آخر أفضل - الذي يؤمن بأن هذا العالم هو أفضل ما يمكن - سيصبح عديم الصبر عندما لا تكون الحياة مثالية. الذين يفترضون أن هذه الحياة هي الجنة سيغضبون بسرعة وينهارون إن لم تكن كذلك. ولا يدركون بأن هناك شيئا أعظم، فلذلك هي كل ما يرغبون به. هي كل ما يسعون من أجله. كل مجهود، وكل قدرة، وكل فرصة، وكل هبة، منحت لهم من

خالقهم ستستخدم من أجل السعي وراء هذه الدنيا التي لن يحصلوا منها إلا على ماكتب لهم فيها.

روحهم متعلقة بجسدهم الدنيوي لظنهم أن هذا الجسد هو جنتهم الوحيدة التي يحوزونها. ولا شيء سواها. فلا يرغبون بالتخلي عنها، ويريدون التشبث بها بأي ثمن. أن تنتزع الروح من " جنتها " عند الموت هو أعظم عذاب ممكن. يصف الله سبحانه وتعالى موت الكفار بانتزاع الروح من الجسد يقول تعالى:﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرقًا﴾ (النازعات: 1).

تنتزع الروح من الجسد انتزاعًا لأنها لا ترغب بالمغادرة. لقد صدقت بانها حقا في الجنة. لم تدرك أن هناك شيئا أعظم، وأعظم بكثير. أما بالنسبة للروح المؤمنة؛ فالأمر مختلف. المؤمن في سجن - وليس جنة - لماذا؟ من هو السجين؟ السجين هو شخص مأسور. السجين هو من قيد وأبعد عن بيته في الوقت الذي يتوق فيه لأن يكون في مكان أفضل. الجسد الدنيوي هو سجن المؤمن، ليس لأن هذه الحياة بائسة بالنسبة للروح المؤمنة، ولكن لأن تلك الروح تتوق إلى أن تكون في مكان أعظم، تتوق للعودة إلى مسكنها. فمهما كانت هذه الحياة رائعة بالنسبة للمؤمن تعد سجنًا مقارنة بالحياة الكاملة التي تنتظره، لأن تعلق الروح يكون بالله سبحانه وتعالى والجنة الحقيقية التي معه، فهي ترغب أن تكون هناك. بيد أن هذه الحياة الدنيا هي التي تمنع الروح من الرجوع - لوهلة - إلى ذاك المكان. إنها العائق، والسجن. وعلى الرغم من أن قلب المؤمن يمتلك الجنة

الحقيقية الوحيدة في هذه الحياة، فإن روحه تظل تهفو إلى ما وراء ذلك. تظل الروح باحثة عن مسكنها، لكن يتحتم على هذه الروح أن تبقى وراء قضبان الجسد لمدة محددة. وعليها أن " تقضي المدة " قبل أن يطلق سراحها لتعود إلى مسكنها. علاقة الروح المؤمنة ليست بالجسد المقيد. عندما تنتهي المدة ويُبلغ السجين بإمكانية رجوعه لمسكنه لن يتمسك أبدا بقضبان السجن. يصف الله سبحانه وتعالى موت المؤمن بصورة مختلفة يقول سبحانه وتعالى:﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ (النازعات: 2).

فالروح المؤمنة تنساب بسهولة من الجسد عند نهاية «مدة سجنها» وتتوجه الآن إلى مسكنها. لن تتشبث مثل الروح الكافرة التي ظنت أنها في أفضل ما يمكن أن تحصل عليه.

ومن ثم لا يمكنني تصور تشبيه أفضل مما جاء به رسولنا الحبيب صلى الله عليه وسلم حقا إن هذه الحياة سجن للمؤمن وجنة للكافر. المنادي نفسه سينادينا جميعا. والسؤال هو، هل سنعيش حياتنا بطريقة تجعلنا نتمسك بقضبان السجن عندما يأتي ذلك النداء؟ أم هل سنعيش بطريقة نرى ذلك النداء كنداء تحرر. نداء للعودة إلى مسكننا؟

العلاقة مع الخالق

الصلاة: غرض الحياة المنسي

قام الإنسان بالعديد من الرحلات على مر الأزمان. لكن هناك رحلة واحدة لم يقم بها أحد على الإطلاق.

لا أحد، ما عدا إنسانًا واحدًا.

على مركبة لم يركبها أحد من البشر عبر مسار لم يره أحد من قبل. إلى مكان لم تطأه قدم مخلوق قط. كانت رحلة رجل واحد ليلتقي بالإله؛ هي رحلة محمد صلى الله عليه وسلم رسول الله إلى السماوات العلا.

إنها رحلة الاسراء والمعراج (الرحلة العظيمة).

في تلك الرحلة رفع الله سبحانه وتعالى رسوله الحبيب صلى الله عليه وسلم إلى السماء السابعة، إلى مكان حتى جبريل عليه السلام لا يمكنه الدخول إليه بالنسبة لرسالته صلى الله عليه وسلم على الأرض، كانت كل التعليمات وكل الأوامر تنزل إليه بواسطة جبريل عليه السلام، ولكن كان هناك أمر واحد لم يصل بتلك الطريقة كان هناك أمر واحد في قمة الأهمية، فبدلا من أن يُنزل جبريل عليه السلام هذا الأمر رفع الله سبحانه وتعالى محمدا صلى الله عليه وسلم إليه ليبلغه به.

كان ذلك الأمر هو الصلاة. عندما أُعطي الرسول صلى الله عليه

وسلم الأمر بالصلاة كانت خمسين صلاة في اليوم والليلة. وبعدما سأل الرسول محمد صلى الله عليه وسلم الله سبحانه وتعالى أن يخفف عن أمته، أصبح الأمر في النهاية خمس صلوات في اليوم والليلة، بأجر الخمسين.

عند التمعن في هذه الحادثة وضح العلماء أن عملية التخفيف من خمسين إلى خمسة كانت مقصودة؛ والغرض منها إعلامنا بالمكان الحقيقي الذي تحتله الصلاة في حياتنا.

تصور للحظة أنك تؤدي الصلاة خمسين مرة في اليوم. هل يمكننا فعل أي شيء آخر سوى الصلاة؟ لا. وهذا هو المقصود. هل هناك طريقة أعظم من هذه لتبيان الغرض الحقيقي من حياتنا، كما لو كنا نقول: الصلاة هي حياتنا الحقيقية، وكل ما تبقى مما نملأ به يومنا هو مجرد حركات.

ومع ذلك فنحن نعيش العكس تماما، فالصلاة باتت شيئا نحشره في يومنا، عندما نجد وقتا. حياتنا لا تتمحور حول الصلاة. الصلاة هي التي تتمحور حول حياتنا. إذا كنا في حصة، فالصلاة فكرة ثانوية تخطر على بالنا. وإذا كنا في السوق، فالتنزيلات في متاجر مايسي تكون أكثر إلحاحا. هناك شيء في غاية الخطأ عندما نضع جانبًا الهدف الحقيقي لوجودنا من أجل مشاهدة مباراة كرة سلة.

وهذا عند أولئك الذين يصلون فحسب. وهناك من لم يضع هدف حياته جانبا فحسب بل تخلى تماما. الشيء الذي لا ندركه عن

ترك الصلاة يتمثل في الآتي: لا يرى أي عالم أن ارتكاب الزنا يجعلك كافرا، ولا يرى أي عالم أن السرقة أو شرب الخمر، أو تعاطي المخدرات تجعلك كافرا. ولم يدع أي عالم أن ارتكاب جريمة قتل تجعلك غير مسلم. ولكن، عن الصلاة، قال بعض العلماء إن تارك الصلاة لا يعد مسلمًا بني هذا الرأي على حديث شريف: (الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ الصَّلَاةُ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ) (أحمد).

تخيل مدى فظاعة هذا الفعل الذي جعل الرسول صلى الله عليه وسلم يتحدث عنه بهذه الطريقة. فكر للحظة ما الخطأ الذي اقترفه الشيطان. هو لم يرفض الإيمان بالله سبحانه وتعالى ولكنه رفض أن يسجد سجدة واحدة. واحدة فقط. تخيل كل السجدات التي أبينا تأديتها.

ضع بعين الاعتبار خطورة هذا الرفض. ومع ذلك، فكر كيف تأخذ أمر الصلاة بلا مبالاة، الصلاة هي أول شيء نسأل عنه يوم القيامة، ومع ذلك فهي آخر ما يشغل بالنا قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ الصَّلَاةُ) (الترمذي)

في ذلك اليوم يسأل أهل الجنة أولئك الذين حشروا في جهنم، لماذا دخلتموها. ويخبرنا القرآن الكريم تماما ما سيكون ردهم الأول: ﴿ما سَلَكَكُم في سَقَرَ قالوا لَم نَكُ مِنَ المُصَلّينَ﴾ (المدثر: 43 - 42).

كم منا سيكون مع هؤلاء الذين يقولون: لم نكن من المصلين، أو لم نكن من الذين أقاموا الصلاة على وقتها أو لم نكن من الذين جعلوا

الصلاة أولوية في حياتهم؟ لماذا إذا كنا في درس أو عمل أو نوم عميق وقت صلاة الفجر، واحتجنا قضاء الحاجة، نخصص وقتا لذلك؟ في الواقع هذا السؤال يبدو سخيفا إلى حد ما، فنحن لا نعد عدم القيام به خيارا. حتى عند أخذنا لأهم امتحان في حياتنا، إذا احتجنا إلى الذهاب، فسنذهب. لماذا؟ لأن احتمال وقوع نتائج مخزية لعدم ذهابنا لا تجعله خيارا.

يقول الكثير من الناس إنهم لا يملكون وقتا للصلاة في العمل أو في المدرسة، أو عندما يكونون خارجا. لكن كم من الناس يقولون إنهم لا يملكون الوقت للذهاب إلى الحمام؟ ولهذا حينما خرجوا إلى العمل أو المدرسة اختاروا بدلا من الذهاب إلى الحمام ارتداء الحفاظات؟ ببساطة كم منا ليست لديه الرغبة في الاستيقاظ وقت الفجر إذا احتجنا استخدام الحمام، وعوضاً عن ذلك نختار التبول في السرير الحقيقة أننا سنقوم من السرير، أو تترك الفصل، أو نتوقف عن العمل؛ لنستخدم الحمام، ولكن ليس لأجل الصلاة. يبدو ذلك مضحكا، لكن الحقيقة هي أننا نضع احتياجات جسدنا فوق احتياجات روحنا. نطعم أجسامنا، لأننا إن لم نفعل، فسنموت. لكن الكثير منا يجوع روحه، متناسين أننا إن لم نصلِّ فإن أرواحنا ستموت. ومن المفارقة، أن الجسد الذي نعتني به هو مؤقت، بينما الروح التي نهملها هي أبدية.

الصلاة: وأسوأ أنواع السرقة

الشيء الوحيد المحزن في العثور على الصراط المستقيم هو عندما تفقده. هناك طرق كثيرة للسقوط ولكن لا يوجد سقوط أكثر مأساوية من خسران الدين. أحيانا قد تقرر أخت خلع حجابها وأن تحيا حياتها بشكل مختلف، وأحيانا نرى أخا كان ناشطا في المجتمع، ولكنه سرعان ما بدأ يخالط مجموعة مريبة من الناس. مع كل قصة، وبطريقة ما، وفي مرحلة ما خلال الدرب، سقط إخواننا وأخواتنا بعيدا جدا.

ومما يثير الحزن، أن هذه القصص ليست نادرة. أحيانا لا نستطيع إلا أن ننظر إليهم ونتساءل: كيف؟ لماذا؟ نتساءل كيف يمكن لشخص كان على استقامة أن يحيد بعيدا عن الطريق؟

عندما نطرح هذا التساؤل كثيرا، ما لاندركه هو أن الجواب قد يكون أبسط مما نظن. يسقط الناس في كل أنواع المعاصي، ولكن هناك معصية يشترك فيها الكثير من هؤلاء. هناك قاسم مشترك واحد لكل فرد يعيش حياة مليئة بالمعاصي - بغض النظر عما إذا كان ذلك الشخص يوما ما على الطريق المستقيم وحاد أو لم يكن يوما على ذلك الطريق أبدا - هناك شيء واحد وارد الحدوث، وهو قيام ذلك الشخص بدايةً بهجر الصلاة، أو التقليل من شأنها، أو وضعها

جانبا أو تجاهلها قبل أن يدركه السقوط.

إذا كان الشخص يصلي، ولكنه يعيش حياة مليئة بالمعاصي، فصلاته على الأرجح هي حركة للجوارح فقط، لا للقلب أو الروح. لاحظ أن هناك صفة مهمة للصلاة كثيرا مايغفل عنها، ففضلا عن كونها مع خالقنا، فالصلاة هي من أوثق أنواع الحماية. يقول الله سبحانه وتعالى:﴿اتلُ ما أوحِيَ إِلَيكَ مِنَ الكِتابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنهى عَنِ الفَحشاءِ وَالمُنكَرِ وَلَذِكرُ اللَّهِ أَكبَرُ وَاللَّهُ يَعلَمُ ما تَصنَعونَ﴾ (العنكبوت: 45).

عندما يقرر شخص أن يتخلى عن الصلاة، فإنه يتخلى أيضا عن هذه العناية من الضروري أن نتذكر أن هذا التخلي عن الصلاة في أغلب الأحيان لا يحصل مرة واحدة، ولكن بصورة تدريجية. يبدأ التخلي بتأخير الصلوات إلى خارج أوقاتها المحددة، وأحيانا جمع صلاة مع أخرى، وسرعان ما يتحول إلى ترك الصلاة جملة واحدة. قبل أن تدرك ذلك، يصبح ترك الصلاة عندك عادة. وفي الوقت نفسه يحدث شيء آخر غير محسوس. مع كل صلاة مؤخرة أو متروكة، تشتعل معركة خفية: معركة الشيطان. بترك الصلاة ينزع الإنسان الدرع الذي منحه الله سبحانه وتعالى إياه، ويدخل أرض المعركة بدون حماية.

يمكن للشيطان الآن أن يحصل على التحكم الكامل. وعن هذه الحقيقة يقول الله سبحانه وتعالى:﴿وَمَن يَعشُ عَن ذِكرِ الرَّحمنِ نُقَيِّض لَهُ شَيطانًا فَهُوَ لَهُ قَرينٌ﴾ (الزخرف: 36). لذلك ليس من

المفاجئ أن ترى أن ترك الصلاة سيصبح الخطوة الأولى في الطريق إلى حياة أدنى. أولئك الذين حادوا عن الطريق يحتاجون فقط إلى النظر إلى بداية الهاوية، سيجدون التهاون بالصلاة. والعكس ينطبق أيضا على أولئك الذين يسعون إلى الاستقامة في حياتهم، حيث يبدأ ذلك بالتركيز على الصلاة وإتقانها. حينما تعيد للصلاة أولويتها - فوق المدرسة والعمل، والمتع والعلاقات الاجتماعية، والتسوق والتلفاز، والمباريات الرياضية - حينها فقط تستطيع أن تغير وجهة حياتك.

المفارقة في هذه الحقيقة أن الكثير من الناس خدعوا بظنهم انهم بحاجة إلى تغيير وجهة حياتهم قبل البدء بإقامة الصلاة. هذا التفكير هو خدعة خطيرة من الشيطان، الذي يعلم أن الصلاة بحد ذاتها هي التي تعطي الشخص الطاقة والهداية الضروريتين لتغيير وجهة حياته. هذا الشخص مثل من يقود سيارة بدون وقود، لكنه يصر على إنهاء رحلته قبل أن يزودها بالوقود. ذلك الشخص لا يمكنه الذهاب إلى أي مكان، وبالطريقة نفسها، مثل هؤلاء الناس يلبثون سنين في مكانهم نفسه: لا يصلون، ولا يغيرون حياتهم. تحداهم الشيطان، وغلبهم.

بفعلنا هذا سمحنا له بأن يسرق منا ما لا يقدر بثمن. بيوتنا ومركباتنا عزيزة على نفوسنا حتى إننا لا نفكر أبدا بتركها بدون حماية، فندفع مئات الدولارات لوضع أجهزة أمان لضمان سلامتها. ومع ذلك نترك ديننا بدون حماية، ليسرقه أسوأ اللصوص، اللص الذي أقسم لله سبحانه وتعالى بأن تكون عداوته لنا بلا هوادة، وإلى نهاية

الزمان. لص لا يسرق شيئا من المعدن المشكل الذي عليه علامة مرسيدس، بل هو لص يسرق روحنا الأبدية وتذكرتنا الدائمة إلى الجنة.

محادثة مقدسة

هناك وقت من الليل يتحول فيه العالم بأكمله. أثناء النهار، غالبا ما تطغى الفوضى على حياتنا؛ مسئوليات العمل والمدرسة والعائلة تسيطر على معظم اهتمامنا. وفيما عدا الوقت الذي نقضيه في الصلوات الخمس، من الصعب أن نخصص وقتا للتأمل أو الاسترخاء. الكثير منا يعيش حياته مسرعا، ونتيجة لذلك قد لا ندرك قيمة ما نفقده.

لكن هناك وقتا في الليل عندما ينتهي العمل، تهجع المركبات، ويصبح الصمت هو الصوت الوحيد. في ذلك الوقت – بينما يخلد العالم المحيط بنا إلى النوم - هناك من لا ينام، ينتظرنا لنناديه. أُخبرنا في حديث قدسي:

(يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخَرُ فَيَقُولُ مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبُ لَهُ وَمَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيهِ وَمَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرُ لَهُ)

(صحيح البخاري ومسلم).

ما على الشخص إلا أن يتخيل: ما الذي سيحدث إذا جاء الملك إلى بابه عارضًا أن يمنحنا كل ما نريده؟ قد نتصور أن أي شخص عاقل على الأقل سيضبط منبهه على هذا الموعد. إذا أخبرنا أنه

سـيترك صَـكًّا بعشرة مـلايين دولار على عـتبة بـابـنا قـبل الفجـر بساعة، ألا نستيقظ لنأخذه؟

أخبرنا الله سبحانه وتعالى أنه في هذا الوقت من الليل، قبل الفجر بـقليل، سـيأتي إلى عـباده. تـخيل هـذا، أن مـلك الـكون يـعرض عـليك محادثة مقدسة. ينتظرنا إلهنا كي نقوم ونناجيه، لكن الكثير منا ينام في سريره ويتركه ينتظر. يأتينا الله سبحانه وتعالى ويسألنا ماذا نطلب منه؟ خالق كل شيء أخبرنا بأنه سيعطينا كل ما نسأل.

ومع ذلك ننام.

سيأتي يوم يرفع به حجاب الوهم، يقول القرآن الكريم:﴿لَقَد كُنتَ في غَـفلَةٍ مِـن هـذا فَـكَشَفنا عَـنكَ غِـطاءَكَ فَبَصَرُكَ الـيَومَ حَـديـدٌ﴾(ق: 22)

في ذلك اليوم، سنرى الحقيقة المطلقة؛ في ذلك اليوم، سندرك أن صلاة ركعتين هي أعظم من كل شيء في السماوات والأرض. سندرك قـيمة الـصك الـذي لا يقدر بثمن، الـذي تـرك على عـتبة بابـنا، في كل ليلة بينما نحن نيام. سيأتي يوم نتمنى فيه التخلي عن كل شيء تحت السماء، والرجوع لكي نصلي هاتين الركعتين.

سيأتي يوم نتخلى فيه عن كل شيء أحببناه في هذه الحياة، كل ما شـغل قـلوبنا وعـقولـنا ، كل سراب ركضنا وراءه، فـقط لنحـظى بـتلك المحادثة مع الله سبحانه وتعالى. لكن في ذلك اليوم سيكون هناك بعض الذين يلتفت الله عنهم.. وينساهم كما نسوه يومًا. يقول القرآن

الكريم:﴿قالَ رَبِّ لِمَ حَشَرتَني أَعمى وَقَد كُنتُ بَصيرًا قالَ كَذلِكَ أَتَتكَ آياتُنا فَنَسيتَها وَكَذلِكَ اليَومَ تُنسى﴾ (طه 125 : 126) وفي سورة المؤمنون يقول الله سبحانه وتعالى:﴿لا تَجأَرُوا اليَومَ إِنَّكُم مِنّا لا تُنصَرونَ﴾ (المؤمنون: 65). هل يمكنك أن تتصور ما الذي تخبرنا به تلك الآيات؟ ليس هذا عن نسيان صديق قديم أو زميل لك. إنه عن نسيان رب العوالم لك! لا جهنم، ولا الماء المغلي،و لا الجلد المحروق، ولا أي شيء أعظم عقوبة من تلك!

ولا جائزة هي أعظم مما وصفه الرسول صلي الله عليه وسلم في الحديث التالي: (إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ - قَالَ - يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ فَيَقُولُونَ أَلَمْ تَبِيضْ وُجُوهُنَا أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتَنْجِنَا مِنْ النَّارِ - قَالَ - فَيُكْشَفُ الْحِجَابُ فَمَا أَعْطَوْا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ) (صحيح مسلم).

لكن، لا يحتاج الشخص أن ينتظر إلى ذلك اليوم كي يرى نتيجة هذا اللقاء الليلي مع الله سبحانه وتعالى. الحقيقة هي، أن الكلمات تعجز عن وصف الإحساس الفائض بالسلام، والذي يتحقق في هذه المناجاة، فلابد للشخص أن يجرب كي يعرف. إن أثر هذه المناجاة على حياة الشخص لا يقاس. عندما تجرب القيام، صلاة قيام الليل، فإن ما تبقى من حياتك سيتغير بشكل جذري. فجأة، تصبح الأعباء التي كانت تثقل كاهلك خفيفة، والمشكلات المستعصية ستحل. فهذا القرب من خالقك الذي كان في يوم ما غاية بعيدة المنال؛ سيصبح حبل نجاتك الوحيد.

الساعة الأشد ظلمة وقدوم الفجر

طبقا للمثل المألوف، فإن الساعة الأشد ظلمة هي تلك التي تسبق بزوغ الفجر، ولكن من الناحية الفلكية، فإن الساعة الأشد ظلمة تأتي أبكر من ذلك بكثير. حقيقة هذا المثل مجازية، ولكنها ليست -بأية حال- أقل واقعية. كثيرا ما نجد أن أكثر الساعات قتامة في حياتنا يعقبها ما هو أثمنها على الإطلاق. فغالبا في تلك اللحظة السوداوية، عندما يبدو كل شيء محطماً، يحدث شيء ما غير متوقع تماما، ليحملنا ويأخذ بأيدينا إلى بر الأمان. ألم يفقد النبي أيوب عليه السلام كل شيء عزيز عليه الواحد تلو الآخر، قبل أن يرد إليه كل ما فقده وزيادة؟

نعم بالنسبة للنبي أيوب عليه السلام كانت الظلمة حقيقية، وللكثير منا تبدو وكأن تلك الظلمة كانت ستبقى للأبد. لكن الله سبحانه وتعالى لا يسمح بظلمة أبدية، فبرحمته يمنحنا الشمس. ولكن هنالك أوقاتا نشعر فيها وكأن شدائدنا لن تفرج. وربما سقط بعضنا إلى هاوية روحية في ديننا، تجعلنا نشعر بالانفصال عن خالقنا. وربما تكون الظلمة شديدة القتامة على بعضنا، لدرجة أننا لا نشعر بها أصلا.

لكن مثل الشمس التي تشرق بعد انقضاء الليل، فإن فجرنا يبزغ.

فرحمة الله الواسعة أرسلت لنا نور رمضان كي يمحو الليل. أرسل الله سبحانه وتعالى شهر القرآن كي يسمو بنا ويخرجنا من عزلتنا إلى قربه. أعطانا سبحانه وتعالى هذا الشهر المبارك، كي نملأ فراغنا، ونداوي وحدتنا، وفقر أرواحنا. أرسل سبحانه وتعالى لنا الفجر، كي نرى من الظلمات نورا. يقول الله سبحانه وتعالى:﴿هُوَ الَّذي يُصَلّي عَلَيكُم وَمَلائِكَتُهُ لِيُخرِجَكُم مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النّورِ وَكانَ بِالمُؤمِنينَ رَحيمًا﴾ (الأحزاب: 43).

هذه الرحمة تصل إلى كل من يطلبها، فحتى أعتى المجرمين قد أُخبر بألا ييئس من رحمة الله الواسعة. يقول الله سبحانه وتعالى في محكم كتابه العزيز:﴿قُل يا عِبادِيَ الَّذينَ أَسرَفوا عَلى أَنفُسِهِم لا تَقنَطوا مِن رَحمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغفِرُ الذُّنوبَ جَميعًا إِنَّهُ هُوَ الغَفورُ الرَّحيمُ﴾ (الزمر: 53).

الله سبحانه وتعالى هو مالك الرحمة، وليس هناك وقت تتنزل فيه هذه الرحمة علينا أكثر من شهر رمضان المبارك. قال الرسول صلي الله عليه وسلم: (أَوَّلُهُ رَحْمَةٌ وَأَوْسَطُهُ مَغْفِرَةٌ وَآخِرُهُ عِتْقٌ مِنْ النَّارِ) (صحيح ابن خزيمة).

كل لحظة في رمضان هي فرصة للرجوع إلى الله سبحانه وتعالى، فكل ما نمر به في حياتنا هو في أغلب الأحيان نتيجة مباشرة لأفعالنا. فإذا تعرضنا للإهانة، أو شعرنا بإحباط، فهي ذنوبنا التي حطت من قدرنا. تمسكنا بالله سبحانه وتعالى هو الطريق الوحيد لرفعتنا؛ فعندما لا تتمكن من الاستيقاظ لصلاة الفجر باستمرار، أو يصبح من

الصعب علينا تجنب كل ما هو حرام، عندها يجب علينا مراجعة علاقتنا بالله سبحانه وتعالى. الأهم من ذلك كله يجب علينا ألا ننخدع أبدا، ويجب ألا نسمح لأنفسنا أبدا بالتفكير في أن أي شيء في هذا العالم ينجح أو يفشل أو يُمنح أو يُؤخذ أو يُنجز أو لا يُنجز دون تقدير الله سبحانه وتعالى. ارتباطنا بالله سبحانه وتعالى هو العامل المحدد لرقينا أو سقوطنا في هذه الحياة، فضلًا عن علاقتنا بهذا العالم، والبشرية جمعاء.

خالقنا لا يحمل لنا أي ضغينة بخلاف البشرية. لك أن تتخيل استلامك لصحيفة بيضاء. تخيل أنه تم محو كل شيء ندمت على فعله تماما. رمضان هو تلك الفرصة، فقد أخبرنا الرسول صلى الله عليه وسلم: (مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ) (البخاري).

لقد أُعطينا هذه الفرصة التي لا مثيل لها، كيف لنا أن نستغلها على أحسن وجه؟ هناك أمران كثيرا ما نغفل عنها، يجب أن نضعها في عين الاعتبار.

اعِلم لماذا تصوم

الكثير من الناس ينظر إلى الصوم على أنه مجرد شعيرة دون فهم مقصدها الحقيقي، وبعض آخر يختزلها إلى مجرد تدريب بسيط للتعاطف مع الفقراء، وعلى الرغم من أن هذه نتيجة جميلة للصيام، فإنها ليست الهدف الأساسي الذي بينه الله سبحانه وتعالى في القرآن

الكريم. قال الله تعالى:﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنوا كُتِبَ عَلَيكُمُ الصِّيامُ كَما كُتِبَ عَلَى الَّذينَ مِن قَبلِكُم لَعَلَّكُم تَتَّقونَ﴾ (البقرة: 183). عندما نقوم بالتحكم والحد من حاجتنا المادية، فإننا نكتسب القوة لخوض المعركة الأعظم: التحكم والحد من شهوات النفس. عند الصيام، كل شعور بألم الجوع يذكرنا بالله سبحانه وتعالى الذي قمنا بهذه التضحية من أجله. تذكرنا الدائم لله سبحانه وتعالى، والتضحية من أجله، سيجعلنا أكثر إدراكاً لوجوده، وبهذه الطريقة نزيد من تقوانا. الشيء نفسه الذي يمنعنا من اقتراف معصية أكل الطعام خِلسة بغياب الآخرين، هو الذي يدربنا على تجنب معاصٍ أخرى بغياب الآخرين. تلك هي التقوى.

لا تجعل من الصيام مجرد شعور بالجوع والعطش

قال الرسول صلي الله عليه وسلم: (مَنْ لَمْ يَدْعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ) (البخاري).

كما حذرنا الرسول صلي الله عليه وسلم: (رُبُّ صَايِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا الْجُوعُ وَرُبَّ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إِلَّا السَّهَرُ) (الدارمي). يجب عليك أثناء الصيام أن تفهم الصورة كاملة، وأن تتذكر أن الصيام ليس مجرد الامتناع عن الطعام والشراب فحسب، بل إنه كفاح لتصبح شخصًا أفضل، وبهذا الكفاح تعطى فرصة للانعتاق من ظلمات انعزالنا عن الله سبحانه وتعالى. ولكن مثل الشمس التي تغرب في نهاية اليوم، فكذلك رمضان سوف يأتي ويذهب، تاركا بصمته على سماء قلوبنا.

اليوم دفنا رجلًا: تأمل في الموت

كتبت هذا وأنا في السيارة في طريق عودتي إلى البيت بعد دفن نفس ورعة. أدعو الله سبحانه وتعالى أن يرحمه وأسرته.آمين.

دفنا رجلا اليوم وهأنذا الآن في طريقي إلى البيت مع قافلة الأحياء، مؤقتا.

إلى الآن، أنا وأنت مازلنا في قافلة الأحياء. ولكن هذا ليس بسبب أننا متجهون إلى أرض منفصلة. ليس لأنهم ذاهبون ونحن ماكثون. ولكن فقط لأن قافلتنا تباطأت في المسير. الآن نقود سياراتنا عائدين إلى بيوتنا، وأسرتنا وتلفازنا، ووظائفنا واختباراتنا وأصدقائنا، وحسابنا في الفيس بوك، ودردشة جيميل. الآن نحن نقود مركباتنا راجعين إلى لهونا وأصنامنا وأوهامنا الخادعة. ذلك هو ما نفعله تماما. أنا لا أقود المركبة عائدة إلى بيتي وسريري وتلفازي. أنا لست راجعة إلى وظيفتي واختباراتي وأصدقائي وحسابي في الفيس بوك ودردشة جيميل. لست في طريقي للعودة إلى لهوي ووهمي وأصنامي. أقود المركبة راجعة إلى حيث بدأت. أتجه الآن إلى المكان نفسه الذي ذهب هو إليه. أنا في طريقي إلى المكان نفسه. ولكني لا أعلم تماما كم ستستغرق رحلتي هذه. أشُدُّ الرحال إلى حيث بدأت: مع الله سبحانه وتعالى. لأن الله هو الأول، وهو الآخر.

جسدي يأخذني إلى هناك، ولكنه مركبة فقط؛ عندما أصل هناك سأخلّفه ورائي كما فعل هو اليوم. جسدي جاء من الأرض وسيرجع إلى الأرض، كما جاء. كان مجرد صَدَفة، حاوية لروحي. صحبني لفترة قصيرة. لكنني سأتركه هنا عندما أصل. أصل، وليس أرحل. لأن ذلك هو مسكني الذي سأعود إليه وليس هذا. ولهذا عندما ينادي الله سبحانه وتعالى النفس الورعة للرجوع، يقول:﴿ارجِعي﴾ (الفجر: 28).

النفس الجميلة النبيلة التي دفناها لم ترحل اليوم من الحياة. تلك النفس دخلت مرتبة أعلى وأفضل منها - إن شاء الله - تلك النفس وصلت إلى مسكنها فقط. أما هذا الجسد فقد خُلق من العالم المادي، لذلك وجب عليه أن يُترك هنا. الجسد هو من العالم الأدنى العالم الذي نحتاج فيه لنأكل وننام وننزف ونبكي ونموت. بينما الروح هي من العالم العلوي. الروح لديها احتياج واحد فقط: هو أن تكون مع الله سبحانه وتعالى.

ولهذا وبينما يبكي الجسد وينزف ويشعر بالألم من العالم المادي، لا تتأثر الروح بهذه الأشياء. هناك شيء واحد فقط يمكنه أن يجرح أو يطعن أو يؤذي الروح. هناك شيء واحد فقط يستطيع أن يقتلها: هو حرمانها من احتياجها الوحيد، أن تكون قريبة من مبدعها، أن تكون قريبة من الله سبحانه وتعالى. لذلك ينبغي علينا ألا نبكي على النفس التي وصلت إلى مسكنها، لأنها ليست ميتة. يجب أن نبكي بدلًا من ذلك على من كان جسده حيا وروحه ميتة؛ بسبب اغترابها عن الذي وهبها الحياة: الله سبحانه وتعالى. ومن ثَم تسابِق الروح المؤمنة إلى

مسكنها، حتى وهي في هذه الحياة.

يا إلهي، اجعل روحي مطمئنة، اجعلها مثل قلعة صامدة في داخلي. لا أحـد ولا شيء يسـتطيع أن يـقلقها. اجـعلها مـكانـا مـن الـسكون والهدوء والصفاء، غير ملموسة من العالم الخارجي. الروح التي يصفها الله سبحانه وتعالى بالنفس المطمئنة. الروح التي يناديها الله سبحانه وتعالى بالرجوع قائلا:

﴿يا أَيَّتُهَا النَّفسُ المُطمَئِنَّةُ ارجِعي إِلى رَبِّكِ راضِيَةً مَرضِيَّةً فَادخُلي في عِبادي وَادخُلي جَنَّتي﴾ (الفجر: 30-27).

لماذا لا تستجاب دعواتي؟

سؤال: لماذا لا تستجاب دعواتي؟

جواب: عسى الله أن يكافئك على سؤالك الصريح هذا، وعسى أن يهدينا إلى الحق.آمين.

أتصور أن ما يحدث في مثل هذه الحالة هو أننا نخلط بين وسائلنا وغاياتنا. عندما ندعو الله سبحانه وتعالى من أجل زوج صالح، مثلاً، هل الزواج المتين هذا وسيلة أم هو غاية؟ أظن أن الكثير من الناس يعدونه غاية، وهذا ما يفسر الشعور بالكثير من الخذلان وخيبة الأمل التي غالبًا ما تلحقه. والمفارقة أنه في كلتا الحالتين: سواء أحصلنا عليه أم لم نحصل؛ سيكون الزواج مثل كل شيء في هذه الدنيا وسيلة فقط. وسيلة للوصول إلى الله سبحانه وتعالى. فإذا دعوناه بذلك ولم نحصل عليه، فربما اختار الله لنا سبحانه وتعالى وسيلة أخرى. ربما من خلال الشدة، وما قد ينتج عنها من تطهير وما تبنيه من صبر، يأخذ بأيدينا إلى تلك الغاية: الله. ربما، والله أعلم، إذا أعطانا ذلك الزوج المدهش الذي دعوناه به، قد يجعلنا ذلك غافلين ولا نحقق غايتنا أبدا.

بدلاً من أن نرى الأمور هكذا، نراها على العكس تماماً، وهنا تكمن المشكلة، فتصبح غايتنا هي الدنيا (الوظيفة الجيدة، معايير معينة للزوج، أو الحصول على طفل أو مدرسة أو مهنة ..الخ). ويصبح الله

سبحانه وتعالى هو وسيلتنا للوصول إليها. نلجأ إليه كوسيلة فقط، من خلال الدعاء، للوصول إلى غايتنا. ندعوه - كوسيلة فقط - للحصول على أي شيء نريده، ثم نشعر بالإحباط إذا لم يحقق لنا ما نريد، ونقذف بأيدينا في الهواء، ونقول إن دعاءنا لا يستجاب وإن وسيلتنا لا تحقق لنا ما نريد!

لكن الله سبحانه وتعالى ليس وسيلة بل هو الغاية. الغاية القصوى للدعاء بحد ذاته هي لبناء علاقتنا مع الله سبحانه وتعالى. فمن خلال الدعاء نصبح أقرب إليه، ومن ثَم أرى أن المشكلة هي في توجهنا الخاطئ، ولهذا السبب أحب دعاء الاستخارة كثيرا، لأنه دعاء كامل تماما. السبب في ذلك أنه يبين بما لا يدع مجالا للشك أن الله وحده أعلم، وبعد ذلك يسأل المستخير الله سبحانه وتعالى له أن يجلب ما هو حسن ويبعد ما هو سيء. الغرض من الدعاء هو ليس ما نطلبه. الغرض هو ما الأفضل لنا في هذه الحياة وفي الآخرة. هذا لا يعني أننا لا نستطيع أن ندعوه طلبًا لأشياء معينة نريدها. بل على العكس، فالله سبحانه وتعالى يحب أن ندعوه. لكن هذا يعني أننا بعد أن نسأل علينا الأخذ بالأسباب بعد أن نضع ثقتنا بالله سبحانه وتعالى. وأن نكون سعيدين بما اختاره الله سبحانه وتعالى لنا. وندرك أن الله سبحانه وتعالى يجيب كل الدعوات، ولكن ليس دائما بالشكل الذي نتوقع. وهذا ببساطة لأن علمنا محدود، وعلمه غير محدود. بعلمه الأزلي قد يرسل لنا ما يعلم أنه الأفضل لنا للوصول إلى الغاية القصوى: رضا الله سبحانه وتعالى. والله أعلم.

فيس بوك: الخطر الخفي

نحن نعيش في عالم إلكتروني محاطون بأجهزة الآي فون والآي باد، ومواقع مثل الماي سبيس واليوتيوب. التوجه واضح: التركيز على الأنا. فلا يحتاج الشخص أن ينظر بعيدا ليرى هذا الولع بالنفس. من أجل بيع أكبر قدر ممكن من المنتجات، يخاطب المعلنون الأنا التي في داخلنا. فعلى سبيل المثال، الكثير من الدعايات تستهوي ذاك الجزء فينا المحب للقوة والسلطة. شركة دايركت تي في تخبرك: " لا تشاهد التلفاز، بل وجهه! " وأما شركة يوكرت لاند فتقول لك: " أنت الحاكم! نرحب بك في أرض اللبن، أرض الاحتمالات اللامتناهية، حيث أنت من يحدد الكميات والخيارات والمشهد ".

لكنهم ليسوا الوحيدين الذين يخاطبون الأنا التي لدينا. هناك ظاهرة عالمية توفر أرضاً خصبة ومنصة لتلك الأنا، إنها تدعى الفيس بوك. الآن سأكون أول من يصرح بأن الفيس بوك يمكن أن يكون أداة قوية للخير؛ إنه، مثل كثير من الأشياء الأخرى، يعتمد على طريقة استعمالك له. فالسكين مثلا قد تستخدم لتقطيع الطعام الذي يشبع الجائع، ولكنها يمكن أن تستخدم في قتل شخص ما. الفيس بوك يمكن أن يُستخدم لتحقيق خير عظيم، ففي النهاية، الفيس بوك هو الذي ساعد في تنظيم الانقلاب على دكتاتور! كما يمكن أن يستخدم الفيس بوك كأداة قوية للتنظيم أو الدعوة والتذكير والتوحد. نستطيع

أن نستخدم الفيس بوك لتقوية صلتنا بالله سبحانه وتعالى وصلة بعضنا ببعض .. ويمكن للفيس بوك أن يستخدم أداة لإحكام قبضة أنفسنا علينا.

ظاهرة الفيس بوك ظاهرة مثيرة، ففي كل واحد منا توجد الأنا، وهي الجانب من أنفسنا الذي يجب أن يُلجم (إذا ما أردنا أن نتجنب مصير " أناكين " الذي أودى به إلى الجانب المظلم) الخطر في إطعام الأنا هو أنه حينما تطعم الأنا تصبح قوية، وعندما تصبح قوية، تبدأ بالتحكم فينا، وقريباً لن تكون عبادًا الله، بل نصبح عبيدا لأنفسنا.

الأنا هو ذلك الجزء منا الذي يحب السلطة. هو الجزء الذي يحب أن يرى، ويعرف ويحمد ويعشق. فالفيس بوك يهيئ منصة قوية لتحقيق ذلك، فهو يوفر منصة يمكن من خلالها لكل كلمة أو صورة أو خاطرة عندي أن تُرى وتحمد " ويُعجب بها " في النهاية، سأبدأ في السعي وراء ذلك. لكن ذلك السعي لن يبقى محصورا في محيط العالم الإلكتروني فقط، بل سيتجاوزه إلى حياتي التي أبدأ بعيشها بطريقة مكشوفة للجميع. فجأة، أجد نفسي أعيش كل تجربة، وكل صورة، وكل خاطرة، كما لو أنها مراقبة، لأن ما يشغل بالي هو التفكير بـ " سأضع هذا على الفيس بوك ". سيخلق هذا حالة عجيبة من الوجود، مع شعور مستمر بأنني أعيش حياة معروضة على الرف. أصبح أكثر وعيا بكوني محط مشاهدة، لأنه يمكن لكل شيء أن يوضع على الفيس بوك ليشاهده الآخرون ويعلقوا عليه.

الأهم من ذلك، أن هذا الحال يخلق شعورًا كاذبًا بأهمية الذات،

بحيث يجعل كل حركة عديمة الأهمية ذات قيمة عالمية. قريبا سأصبح محط الأنظار، وبالتالي فإن الرسالة التي أريد إيصالها هي: أنا مهمه جداً. حياتي مهمة جداً. كل حركة أقوم بها هي في غاية الأهمية. والنتيجة ستكون عالما من الأثرة تسوده الأنا، حيث أكون أنا في المركز.

كما يتضح مما سبق، أن هذه النتيجة - هي تمامًا- ضد حقيقة الوجود. فالهدف من هذه الحياة، هو أن نُدرك حقيقة عظمة الله سبحانه وتعالى وضآلتي واحتياجي له. الهدف هو أن أخرج نفسي من المركز وأضعه هناك سبحانه وتعالى بدلًا منها. لكن الفيس بوك يُرسخ الوهم الذي هو العكس من ذلك تمامًا، فهو يجعلني متيقنة أنه بسبب أهميتي يجب أن تُعرض كل حركة من حركاتي أو فكرة من أفكاري، وإن كان كل ذلك عديم الأهمية. فجأة يصبح ما تناولته في وجبة الإفطار أو ما اشتريته من السوق خبرًا يستحق النشر، وعندما أنشر صورة أنتظر الثناء والاعتراف والتقدير. لقد جعل عدد الإعجابات أو التعليقات من الجمال الحسي شيئا يمكن قياسه. فعندما أنشر شيئًا ما، فإني أنتظر بفارغ الصبر مَن " يُعجب " به. وفضلا عن ذلك أصبحت على وعي تام بعدد " الأصدقاء " لدي، بل وحتى أتنافس مع غيري لزيادة عددهم. وضعت كلمة " الأصدقاء " هنا بين علامتي اقتباس، لأنه لا أحد يعرف 80% من " أصدقائه " على الفيس بوك.

هذا الانشغال والتنافس لكسب الأكثر، ذُكر في القرآن الكريم

بقوله تعالى: ﴿أَلهاكُمُ التَّكاثُرُ﴾ (التكاثر: 1).

وسواء أكان ذلك التنافس في تجميع المال أم الأصدقاء أم الإعجابات على الفيس بوك، ستكون النتيجة نفسها: أصبحنا منشغلين بذلك.

كذلك يُقوي الفيس بوك شغفا من نوع خطير: الشغف بالآخرين، ماذا يفعلون، وماذا يحبون، وما رأيهم فيّ. كما يغذي الفيس بوك انشغالي بتقييم الآخرين لي. فسرعان ما أدخل في مدار الخَلق، وفي داخل ذلك المدار سيحدد الخَلق تعريفاتي وألمي وسعادتي، وقيمة ذاتي ونجاحاتي وفشلي. عندما أعيش في ذلك المدار، سأصعد وأنزل مع الخَلق. فعندما يكون الناس سعداء بي سأصعد، وعندما لا يكونون كذلك سأنزل. المكان الذي أقف فيه سيحدده الآخرون. سأكون مثل السجين، لأني أعطيت للآخرين مفاتيح سعادتي وحزني وإنجازاتي وإحباطي ليحتفظوا بها.

حالما أدخل وأعيش في مدار الخَلق - بدلا من مدار الخالق - أبدأ باستخدام تلك العملة. أنتبه إلى أن العملة في مدار الله هي: رضاه أو غضبه، جزاؤه أو عقابه؛ لكن العملة في مدار الخَلق هي: ثناء الناس أو ذمهم. لذلك كلّما دخلتُ أعمق فأعمق في ذلك المدار، أرغب أكثر وأكثر بتلك العملة، وأخشى أكثر فأكثر من فقدانها. عندما ألعب لعبة المنوبولي على سبيل المثال، فإني أحرص على جمع أكبر قدر ممكن من عملة تلك اللعبة، فالشعور بالغنى عظيم حتى لحظيًا. ولكن بعد انتهاء اللعبة، ما الذي أستطيع شراءه من العالم الحقيقي بمال للعبة.

عملة الثناء البشرية مشابهة لعملة لعبة المنوبولي. تجميعها يشعرك بالسعادة، ولكن عندما تنتهي اللعبة، تكون عديمة القيمة. لا قيمة لها في واقع هذه الحياة الدنيا والآخرة. ومع ذلك، لا أنفكّ أجمع تلك العملة المزيفة - حتى فيما أقوم به من عبادات أيضًا. بهذه الطريقة أصبحت ضحية الشرك الخفي: الرياء. الرياء هو نتيجة العيش في مدار الخَلق كلما دخلتُ أكثر فأكثر في ذلك المدار، أصبحت أكثر حرصًا على الحصول على ثناء الآخرين وتأييدهم وقبولهم. كلما دخلت ذلك المدار، ازداد خوفي من الخسارة، ومن فقدان ماء الوجه وخسارة المكانة الاجتماعية، وخسارة المرح وخسارة التأييد في نهاية الأمر كلما خشيت الناس، أصبحت مستعبدة. الحرية الحقيقية تأتي فقط عندما أترك الخوف من أي شيء وأي أحد غير الله سبحانه وتعالى.

في حديث عميق المعنى جاء رجل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فقال: (يَا رَسُولُ اللَّهِ دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا أَنَا عَمِلْتُهُ أَحَبَّنِي اللَّهُ وَأَحَبَّنِي النَّاسُ؟) فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللَّهُ، وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبُّكَ النَّاسُ) (ابن ماجه).

والمفارقة أنه كلما قلت ملاحقتنا لمديح الآخرين وحبهم، حصلنا عليها. وكلما أصبحنا أقل احتياجًا للآخرين، انجذبوا إلينا وسعوا لصحبتنا هذا الحديث يعلمنا حقيقة عميقة، تتمثل في أن الخروج من مدار الخَلق سيمكننا من أن ننجح مع الله سبحانه وتعالى ومع

الناس. ولهذا ولما كان الفيس بوك بالحقيقة أداة فعّالة، اجعله أداة لتحريرك، لا أداة لعبوديتك لنفسك وتقييم الآخرين لك.

الشعور باليقظة

من الصعب وصف هذا الشعور. تخيل أنك تحيا حياتك كلها في كهف، وتظن أنه عالمك كله، وفجأة تخطو إلى الخارج، ولأول مرة في حياتك ترى السماء، وترى الأشجار والطيور والشمس، للمرة الأولى في حياتك. ستدرك حينها أن العالم الذي عرفته يومًا كان مزيفًا، ولأول مرة ستكتشف واقعًا أجمل وأكثر صدقًا. تخيل نشوة هذا الاكتشاف. ستمر عليك لحظة تشعر فيها بأنك قادر على تحقيق أي شيء. فجأة لم يعد هناك أي أهمية لأي شيء في حياتك السابقة في ذاك الكهف. أصبحت ممكنا، ومتيقظًا تماما، وحيا تماما، وواعيا تماما لأول مرة. إنه شعور لا يمكن وصفه. إنها النشوة الروحية التي تلازم كل حقيقة مكتشفة حديثا.

هذا هو الشعور باليقظة

حديثُ الدخول في الإسلام يعرف هذا الشعور والمسلم الذي يرجع إلى دينه يعرف هذا الشعور. أي إنسان يعيش حياته بعيدا عن الله ثم يعود إليه مرة أخرى يعرف هذا الشعور أيضا. هذه هي الحالة التي سماها ابن القيم رحمه الله في كتابه مدارج السالكين (باليقظة). يصف هذه الحالة بالمحطة الأولى في الطريق إلى الله سبحانه وتعالى. هذه هي الحالة التي عادة ما يُشار إليها على أنها (حماسة

المهتدي). عندما يبدأ شخص ما باعتناق الإسلام، أو العودة إلى الله سبحانه وتعالى، فإنه كثيرا ما يكون مليئا بالحماسة والطاقة التي لا تجدها عند الآخرين، والسبب وراء هذه الطاقة المتدفقة هو النشوة الروحية التي تتصف بها هذه المرحلة.

خصائص درجة اليقظة:

يجعل الله سبحانه وتعالى له العبادة أسهل؛ ففي خلال هذه المرحلة تصبح ممارسة العبادة أسهل بكثير، حيث يكون الشخص منقادًا ومتحمسا إلى درجة تجعله مستعدا للتضحية بكل شيء من أجل الحقيقة الجديدة التي اكتشفها. هذه الحماسة تستطيع أن تنتقل بالشخص من درجة صفر إلى درجة 60 في طرفة عين، وكأنك تتعاطى منشطات روحية. القوة التي تمتلكها ليست من ذاتك، بل هي عون مُنح لك. في هذه الحالة مُنح العون من الله سبحانه وتعالى. البعض ينصح بعدم القيام بتغييرات جذرية وبسرعة. لا أظن بأن التغيير السريع هو المشكلة، ولكني أرى أنه الغرور . أرى أنه اليأس. إذا منحك الله سبحانه وتعالى هبة تستطيع من خلالها إنجاز الكثير، فعليك استخدامها، ولكن اشكره هو عزوجل ولا تشكر نفسك على هذه القدرة، واعلم أن حالة النشوة - التي بسببها قد تنتقل من صفر إلى 60 - مؤقته، ولكن عندما تذهب النشوة لا تفقد الأمل، لا تسمح لنفسك بأن تنزلق مرة أخرى إلى الصفر.

حالة مؤقتة: مثل أية حالة في هذه الحياة، هي حالة مؤقتة. الحياة ليست خطا طوليًا والطريق إلى الله سبحانه وتعالى ليس كذلك أيضا.

عدم إدراك ذلك قد يسبب يأسًا وقنوطًا في اللحظة التي تنتهي فيها تلك النشوة.

عقبات هذه الدرجة:

العقبتان المرتبطتان بهذه الحالة تنتجان من عدم فهم صفات المرحلة التي ذُكرت سابقًا. هاتان العقبتان هما أيضا سببان في الخمول في الطريق إلى الله سبحانه وتعالى: الغرور - أو اللامبالاة - واليأس. المتكبر يشعر أنه أصلا جيد بما فيه الكفاية، لذلك يتوقف عن الكفاح. أما الشخص المصاب باليأس، فيعتقد أنه لن يكون جيدًا بما فيه الكفاية أبدًا. علتان متضادتان تقودان إلى نفس النتيجة: التلكؤ في طريقنا إلى الله سبحانه وتعالى.

الغرور: أول عقبة تنتج من عدم إدراك أن زيادة القدرة على العبادة أتت من الله سبحانه وتعالى، وهي صفة لهذه المرحلة، وليست للشخص! من لا يدرك هذا ينسب جورًا القدرة العالية للعبادة إلى ورعه. هذا الانتساب الزائف خطر جدا، لأنه يقود إلى التكبر والتظاهر بالتقوى. وبدلا من أن يدرك الشخص المهتدي أن هذه (الحالة الدينية العالية) هي هبة من الله سبحانه وتعالى، يشعر العابد بفخر خفي، وقد ينظر بدونية إلى من لا يشاركه هذه الحماسة.

اليأس والقنوط: هذه العقبة ترتبط بعدم إدراك الشخص المهتدي أن هذه النشوة الايمانية - ككل الحالات الأخرى في هذه الحياة - مؤقتة. وهذا لا يعني أنك فشلت أو أخطأت في شيء! أكثر

الـناس يـعرف هـذا الـشعور عـند ذهـاب نـشوة شهـر رمـضان. عـدم استقرار هذه النشوة هي سمة للحياة، وهذا الدرس هو نفسه الذي كان على أبي بكر رضي الله عنه أن يتعلمه أيضا.

في يوم من الأيام جاء أبو بكر وحنظلة رضي الله عنها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وقالا: (دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْتُ نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "وَمَا ذَاكَ؟" قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَانَا رُأْى عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدَكَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لِصَافَحَتْكُمْ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً" ثَلَاثَ مَرَّاتٍ) (صحيح مسلم).

بعد مرور مرحلة النشوة الروحية:

الشيء الأهم في هذه الرحلة هي الا تجزع أبدا. اعلم بأنك لا تشعر بنفس الحماس - ليس لأنك فشلت. الهبوط الذي يتبع هذه النشوة هو جزء طبيعي في هذا الطريق مثلما وضح الرسول صلى الله عليه وسلم لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، ذلك الصعود والنزول هو جزء من الطريق، ولو بقينا دائمًا في تلك الحالة من النشوة فلن نكون بشرًا، بل سنصبح ملائكة! الجانب المحدّد للنجاح هو ليس ما تفعله عندما تكون في مرحلة الصعود، فالسؤال هو ما تفعله عند النزول، وعند فقدانك الشعور بتلك النشوة. مفتاح النجاح في هذا الطريق:

هو أنك عندما تصل إلى (القاع) يتوجب عليك الاستمرار بالحركة، موقنًا بأن ذلك شيء طبيعي.

مصائد الشيطان:

تذكر أن الشيطان سيصل إليك بطرق مختلفة، وبحسب حالتك.

عندما تكون في القمة: عندما تكون في القمة سيحاول الوصول إليك بجعلك متكبرًا. وسيحاول الوصول إليك بجعلك تنظر إلى الآخرين بنظرة دونية. في آخر المطاف سيحاول الوصول إليك بجعلك فخورًا بنفسك، بحيث تظن أنك لا تحتاج إلى مواصلة الكفاح، لأنك أصلا عظيم جدا (وأفضل ممن حولك من الآخرين). دائما ما يجعلك تنظر إلى من يبدو أقل منك عملاً، لتبرر به عيوبك. على سبيل المثال إذا لم ترتدي حجابًا فسيجعلكِ تفكرين أن هناك (محجبات يفعلن كذا وكذا من السيئات! على الأقل أنا لا أفعل هذه الأشياء! أقوم بكذا وكذا من الأشياء الحسنة التي لا تقوم بها المحجبات!). إذا كنت متهاونا بالصلاة، قد تفكر (على الأقل لا أذهب إلى الملاهي ولا أشرب الكحول مثل فلان وفلان). تذكر أن أفعالك لا تقاس بما يفعله الآخرون. كلنا سنقف فرادى يوم القيامة. هي مجرد أداة للشيطان ليجعلك تتوقف عن الكفاح.

عندما تكون في الحضيض: لكن عندما تكون في الحضيض، سيحاول الشيطان أن يستحوذ عليك بطريقة أخرى، سيحاول أن يستحوذ عليك يجعلك يائسًا. سيحاول أن يجعلك تصدق بأنك

عديم القيمة ولا أمل لك في إعادة المحاولة. سيحاول أن يجعلك تصدق بأنك فاشل، ومهما فعلت فلن ترجع إلى ما كنت عليه سابقًا! أو سيحاول أن يجعلك تظن أنك (أسوأ) من أن يغفر الله سبحانه وتعالى لك. ولذلك قد تدع نفسك تهوي أكثر فأكثر. قد تكون في القمة يومًا، ثم تشعر بعدم الرضا عن نفسك، لأنك بدأت بالتلكؤ في العبادات، وربما بسبب ورعك السابق لم تسمح للآخرين بأن يخطئوا أو يضعفوا أبدا. في نهاية المطاف سيؤدي هذا إلى تدمير الذات، لأن ذلك يمنعك من السماح لنفسك أبدًا بارتكاب الأخطاء أو الإحساس بالضعف. بما أنك تعتقد بأنك لا تملك الإذن بأن تكون بشرًا ومعرضا للخطأ، فإنك عندما ترتكب الخطأ تصبح شديدًا على نفسك، بحيث تفقد الأمل. فتسمح لنفسك بالسقوط، وقد ينتهي بك الحال لارتكاب المزيد من المعاصي، والتي تجعلك أكثر يأسا! وتدخل في حلقة مفرغة. سيحاول الشيطان أيضا أن يجعلك تصدق بأنه لا يمكنك أن تتوب أو تصلي؛ لأنك بذلك ستصبح منافقًا لكونك شخصاً (سيئا) للغاية. يريدك أن تيئس من رحمة الله سبحانه وتعالى، هذا بالضبط ما يريده! إنها أكاذيب طبعًا. لكنه في النهاية بارع في عمله. عندما تذنب؛ حينها تكون بحاجة أكثر للرجوع إلى الله سبحانه وتعالى، وليس العكس!

لحماية نفسك من دوامة الهبوط هذه، تذكر أن المنخفضات جزء من الطريق. تذكر أن الفتور هو جزء من كوننا بشرًا. عندما تدرك أن هذا لا يعني أنك فشلت أو أصبحت منافقًا (كما ظن أبو بكر رضي الله

عنه)، فإنك حينما تستطيع أن تتجنب الاستسلام عندما تصل إلى هناك. المفتاح هو أن تشكل عادات معينة، تعتبرها حدك الأدنى. هذا يعني أنه مهما شعرت بأنك مطفأ الحماس وعندك حالة من الفتور، فستظل تقوم بهذه الأشياء على الأقل. ستدرك عندما تكون في القاع، أن القيام بذلك سيكون أصعب، ولكنك ستكافح للحفاظ على هذه الأشياء. فعلى سبيل المثال، الحد الأدنى هو أداء الصلوات الخمس في أوقاتها المحددة، فلا ينبغي عليك أن تتنازل عنها مهما شعرت، يجب أن تعدها كاستنشاق الهواء. تخيل ماذا سيحدث إذا ما توقفت عن التنفس كلما كنت مرهقًا أو متضايقًا. يستحب أن يكون لديك عبادات أخرى كجزء من هذا الحد الأدنى. على سبيل المثال التزم بسنن معينة أو ورد قرآني حتى ولو كان قليلا، وتذكر أن الله سبحانه وتعالى يحب الأعمال الصغيرة الدائمة، أكثر من الأعمال العظيمة المتقطعة. إذا تمسكت بأساسيات معينة خلال فترة (نكوصك) فستركب موجة الإيمان وترتقي إلى الأعلى. وإن شاء الله عندما ترتقي إلى الأعلى، ستكون في مكان أعلى من مرحلة (نشوتك) السابقة.

اعلم أن الطريق إلى الله سبحانه وتعالى ليس ممهدًا. إيمانك سيصعد وينزل، وقدرتك على العبادة ستزيد وتنقص، ولكن اعلم أن مع كل فتور هناك ارتفاع أيضا. ابق صامدًا فحسب، ومواظبًا، ولا تفقد الأمل، واطلب العون من الله سبحانه وتعالى. الطريق صعب، وسيحوي مطبّات وحفرًا، ولكن - مثل كل شيء في هذه الحياة - سيصل هذا الطريق إلى نهايته وتلك النهاية ستستحق كل هذا العناء.

قال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الإنسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدحًا فَمُلاقيهِ﴾ (الانشقاق: 6)

مكانة المرأة

تمكين المرأة

عندما دخل أحد صحابة رسول صلى الله عليه وسلم مدينة، حاملا رسالة الإسلام إلى أهلها، عرضها بشكل جميل، وقال: (نحن قوم ابتعثنا الله لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد).

في هذا القول يكمن كنز عظيم، وفي تلك الكلمات يكمن المفتاح المُوصِلُ للتمكين، والطريق الوحيد للحرية.

اللحظة التي نسمح بها - أنا أو أنت - لأي شيء غير خالقنا، أن يُحدد نجاحنا أو فشلنا، سعادتنا أو قيمتنا، نكون قد دخلنا إلى نوع صامت من العبودية، ولكنه في الوقت ذاته نوع مُهِلك. ذلك الشيء الذي يُحدد قيمة ذاتي ونجاحي وفشلي هو الذي يتحكم فيَّ ويصبح سيدي.

السيد الذي يحدد قيمة المرأة أخذ أشكالاً مختلفة على مر الزمان، ومن بين أكثر المعايير شيوعًا - مما وُضع للمرأة - هو معيار الرجال. لكننا كثيرًا ما ننسى أن الله سبحانه وتعالى كرم المرأة بإعطائها القيمة من خلال علاقتها به هو، وليس من خلال علاقتها بالرجال. إلا أن النساء الغربيات المطالبات بحقوق المرأة - بمحوهن الله سبحانه وتعالى من المشهد - طمسن أي معيار سوى معيار الرجل ونتيجة لذلك اضطرت الغربية المطالبة بحقوق المرأة أن تجد قيمتها

بعلاقتها مع الرجل، وبذلك الفعل تقبلت فرضية خاطئة تقبلت أن يكون الرجل هو المعيار، بناء عليه لا تستطيع المرأة أن تكون إنسانا كاملًا حتى تصبح مثل الرجل: المعيار.

عندما قص الرجل شعره قصيرًا، أرادت أن تجعل شعرها قصيرًا، وعندما التحق الرجل بالجيش أرادت هي أيضا أن تلتحق بالجيش. أرادت تلك الأشياء لا لسبب إلا لأن (المعيار) تملّكهم. ما لم تدركه هو أن الله سبحانه وتعالى شرّف كلًّا من الرجال والنساء من خلال تمايزهم، لا في تشابههم. عندما نقبل الرجال كمعيار، يصبح فجأةً أي شيء يتميز بأنوثته أمرًا أدنى. رقة الشعور تعد إهانة، أن تكوني أمًّا متفرغة، يعد تخلفًا. في المعركة بين العقلانية الرواقية التي تعد (رجولية)، والرحمة النابعة من الإيثار التي تعد (أنثوية) سادت سلطة العقلانية.

ما دمنا رضينا بفكرة أن كل ما يملكه أو يفعله الرجل هو الأفضل، فإن كل ما تلا ذلك هو عبارة عن ردة فعل غير محسوبة: إذا امتلكه الرجال نريده نحن أيضًا، وإذا صلّى الرجال في الصفوف الأولى نفترض أن هذا هو الأفضل، ونطالب بأن نصلّي في الصفوف الأولى. إذا أمَّ الرجال الصلاة نظن أن الإمام أقرب إلى الله سبحانه وتعالى، فنريد أيضا أن نؤم الصلاة. وبالتالي في مكان ما على هذا الطريق، قبلنا بفكرة مفادها أن امتلاك مكانة قيادية دنيوية هو مؤشر على مكانة الشخص عند الله.

لكن المرأة المسلمة لا تحتاج إلى أن تحطّ من قدرها بهذه الطريقة

لـديـها الله سـبحانـه وتـعالى مـعيارًا، ولـديـها الله سـبحانـه وتـعالى كي يعطيها قيمة. إنها ليست بحاجة لرجل كي تحصل على ذلك. بالنظر إلى ميزاتنا كنساء، فإننا سنحط من قدرنا عندما نحاول أن نكون غير ما نحن عليه وبكل صدق - لا نريد أن نكون رجالاً.

بـوصفنا نساء لـن نستطيع أبدًا الـوصول إلى الحرية الحقيقية إلا بـعد أن نـتوقـف عـن مـحاكاة الـرجـال، ونـقدر الجـمال في تميزنا الـذي منحنا الله إياه.

ومع ذلك، في مجتمعنا هناك (سلطان) آخر غالب، والذي حدد لـلنساء قـيمتهن، وهـذا هـو مـا يسمى بـمعيار الجـمال. فـمنذ صـغرنـا كفتيات تم تعليمنا رسالة واضحة من المجتمع، والرسالة هي: (كوني نحيفة ومغرية وجذابة أو .. لا تكوني شيئًا).

أُخبرنا بأن نضع مكياجهن، ونلبس تنانيرهن القصيرة، وأمرنا ببذل حياتنا وأجسادنا وكرامتنا في سبيل أن نكون جميلات، ووصلنا إلى حد تصديق أنه مهما فعلنا فإننا سنكون أهلًا للاحترام فقط على حسب درجـة جـمالـنا، وإسـعادنـا لـلرجـال. قـضينا حـياتـنا على غـلاف مجـلة (كوسمو) وأعطينا أجسادنا سلعة للمعلنين.

كنا عبيدًا، ولكن قيل لنا إننا أحـرارٌ. وكنا فـقط كأدواتهم، ولكنهم أقسموا لنا إنه النجاح. لأنهم علّموكِ أن الهدف من حياتكِ أن تكوني مـعروضـة، لكي تجـذبي وتـكوني جـميلة في عـيون الـرجـال. جـعلوك تصدقين أن جسدك خلق لتسويق سياراتهم.

لكنهم كذبوا عليك.

جسدك وروحك، خُلقا لشيء أعظم. شيء أعظم بكثير.

يقول الله في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ أَكرَمَكُم عِندَ اللَّهِ أَتقاكُم إِنَّ اللَّهَ عَليمٌ خَبيرٌ﴾ (الحجرات: 13)

لذلك فأنتِ مُكرمة، ولكن ليس لعلاقتك بالرجال؛ التي تفرض عليك إسعادهم أو أن تصبحي مشابهة لهم. بل قيمتك كامرأة لا تقاس بحجم خصرك أو عدد الرجال الذين يحبونك، قيمتك كبشري تقاس بميزان أعلى ميزان البر والتقوى، وهدفك في الحياة - على الرغم مما تقوله مجلات الموضة - هو شيء أرفع من مجرد ظهورك جميلة بأعين الرجال.

كمالنا يأتي من الله سبحانه وتعالى وعلاقتنا به. ومع ذلك منذ صغرنا كنساء، عُلّمنا أننا لن نصل أبدًا إلى الكمال إلا إذا جاء رجل ليُكمِّلنا - مثل سندريلا. عُلِّمنا أننا لا قوة لنا إلا عندما يأتي الأمير لينقذنا مثل - الجميلة النائمة. عُلِّمنا أن حياتنا لن تبدأ حتى يأتي الأمير سالب القلوب كي يقبلنا. لكن المسألة هنا: ليس هناك أمير يستطيع إكمالك، وليس هناك فارس يستطيع إنقاذك الله سبحانه وتعالى هو وحده القادر على ذلك.

أميرك هو مجرد بشر، وربما يرسله الله سبحانه وتعالى ليصبح شريكك، ولكنه لن يكون أبدًا منقذك. قرّة عينك، وليس الهواء في رئتيك، هواؤك هو في الله سبحانه وتعالى. خلاصك وكمالك لا

يتحققان إلا بالقرب منه، وليس بالقرب من أي مخلوق آخر. ليس بالقرب من أمير. ليس بالقرب من الموضة أو الجمال أو الأناقة.

لذلك أطلب منكِ أن تنسي ما عُلمته. أسألك أن تقفي وتخبري العالم بأنك لست أَمَةً لأي شيء؛ لا لموضة، ولا لجمال، ولا الرجال. أنت أَمَةً الله سبحانه وتعالى، والله فقط. أسألكِ أن تخبري العالم بأنكِ لست هنا لكي ترضي الرجال بجسدك. أنت هنا لكي تنالي رضا الله سبحانه وتعالى. فلهؤلاء الذين يريدون الخير لك، ويتمنون أن يحرروك، ابتسمي فقط وقولي: لا وشكرا.

أخبريهم بأنك لست هنا كي تُعرضِي. جسدك ليس للاستهلاك العام. تأكدي أن العالم يعرف أنك لن تتحولي إلى سلعة أو ساقين لترويج الأحذية. أنت روح وعقل وأَمَةً الله سبحانه وتعالى. وقيمتك تُحدَّد بجمال تلك الروح، وذلك القلب وتلك الأخلاق. لذا فأنتِ لا تعبدين معايير من الجمال، ولا تخضعين لذوقهم في الموضة. خضوعك هو لشيء أعظم، لذلك فالجواب على سؤال أين وكيف للمرأة أن تجد التمكين؟ أجد نفسي منقادة إلى مقولة ذاك الصحابيّ. أجد نفسي منقادة إلى إدراك أن الحرية الحقيقية والتمكين يكمنان في تحرير النفس من كل الأسياد، وكل الحدود الأخرى، وكل المعايير الأخرى.

كنساء مسلمات، حُرّرنا من هذا القيد الصامت. لا نحتاج إلى معايير مجتمعنا للجمال والموضة، لتحديد مكانتنا. لسنا بحاجة لأن نكون مثل الرجال كي نُكرّم، ولسنا بحاجة لانتظار أمير، كي ينقذنا أو

يُكمّلنا. قيمتنا وحريتنا وكرامتنا وكمالنا لا تكمن بالعباد، بل برب العباد.

رسالة إلى الثقافة التي ربتني

خلال نموّي، قَرأتِ لي حكاية البُطيطة القبيحة، ولسنوات صدقت بأنني هي. ولوقت طويل علمتني بأنني لست أكثر من نسخة سيئة للمعيار (الرجل). لن أستطيع أن أركض أسرع أو أحمل أكثر، لن أحصل على الراتب نفسه، وكثيرًا ما كنت أبكي. نشأت في عالم الرجل الذي لا أنتمي إليه.

وعندما لم أستطع أن أكون هو، أردت فقط أن أرضيه، ووضعت مكياجك ولبست تنانيرك القصيرة، وضحيت بحياتي وجسدي وكرامتي من أجل أن أكون جميلة.

أدركت أنه مهما فعلت، فإن قيمتي ستكون فقط بقدر جمالي، وإرضائي لسيدي. لذلك قضيت حياتي على غلاف مجلة (كوسمو) وأعطيتكِ جسدي لتبيعيه. كنت أَمَة، ولكنك عَلمتِني بأني حرة. كنت متاعكِ، ولكنكِ أقسمت لي بأنه النجاح. عَلمتني أن هدفي من الحياة أن أكون معروضة، أن أجذب! ولكي أكون فاتنة للرجال جعلتني أصدق أن جسدي خلق لتسويق سياراتك، وربيتني لأصدق أنني بطيطة قبيحة، ولكنك كذبت أخبرني الإسلام بأنني وزة. أنا مختلفة، ومن المفترض أن أكون كذلك. جسدي وروحي، خلقا لشيء أكبر من ذلك. يقول الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم ﴿يا أَيُّهَا النّاسُ إِنّا

خَلَقناكُم مِن ذَكَرٍ وَأُنثى وَجَعَلناكُم شُعوبًا وَقَبائِلَ لِتَعارَفوا إِنَّ أَكرَمَكُم عِندَ اللَّهِ أَتقاكُم إِنَّ اللَّهَ عَليمٌ خَبيرٌ﴾ (الحجرات: 13). فأنا مُكرمة، ولكن ليس لعلاقتي بالرجال. قيمتي كامرأة لا تقاس بحجم خصري، أو بعدد الرجال الذين يحبونني؛ قيمتي كبشر تقاس بمعيار أعظم: معيار البر والتقوى. وهدفي في الحياة على الرغم مما تقوله مجلات الموضة شيء أرفع من أن أبدو جميلة بأعين الرجال.

لذلك، أمرني الله سبحانه وتعالى أن أغطي نفسي؛ لأخفي جمالي، ولأخبر العالم أنني لست هنا لأرضي الرجال بجسدي. أنا هنا لأرضي الله سبحانه وتعالى. زاد الله في تكريم جسد المرأة، وأمر أن يُحترم ويُغطّى، ويُكشف فقط للمستحق؛ الرجل الذي أتزوج. فهؤلاء الذين يريدون (تحريري) لدي شيء واحد أقوله لهم: لا وشكرًا.

لست هنا كي أُعرض، وجسدي ليس للاستهلاك العام. لن يتم اختزالي والنظر إلي بوصفي متاعًا، أو زوج سيقان لترويج الأحذية. أنا روح وعقل وأَمَة الله سبحانه وتعالى. قيمتي تتحدد بجمال روحي وقلبي وأخلاقي. لذلك لن أعبد مقاييس جمالك، ولن أخضع لاتجاه موضتك. خضوعي سيكون لشيء أعلى.

بحجابي أعرض إيماني، بدلاً من جمالي. أما قيمتي بوصفي بشرًا، فتحدد بعلاقتي مع الله سبحانه وتعالى وليس بمظهري. فسأُغطي ما لا داعي لعرضه، وعندما تنظر إلي لن ترى جسدًا، بل سترى من أكون: أَمَة لخالقي. انظر، بوصفي امرأة مسلمة، حُرّرت من عبودية ذات نوع صامت لا أستجيب لعباد الله على هذه الأرض بل أستجيب لملكهم.

خاطرة امرأة عن إمامة الصلاة

في 18 مارس 2005 أمّت أمينة ودود أول صلاة جمعة تؤمها امرأة في ذلك اليوم، خطت النساء خطوة كبيرة في اتجاه كونهن أكثر شبهًا بالرجال. لكن هل صرنا أقرب إلى تحقيق حريتنا التي منحها الله سبحانه وتعالى إياها؟

لا أظن ذلك.

كثيرا ما ننسى أن الله سبحانه وتعالى كرَّم المرأة بإعطائها القيمة من خلال علاقتها به هو، وليس من خلال علاقتها بالرجال. إلا أن النساء الغربيات المطالبات بحقوق المرأة - بمحوهن الله سبحانه وتعالى من المشهد - لم يدعن أي معيار سوى معيار الرجل، ونتيجة لذلك اضطرت الغربية المطالبة بحقوق المرأة أن تجد قيمتها بعلاقتها مع الرجل، وبذلك الفعل تقبلت فرضية خاطئة؛ تقبلت بأن يكون الرجل هو المعيار، فبناء عليه لا تستطيع المرأة أن تكون إنساناً كاملًا حتى تصبح مثل الرجل: المعيار.

عندما قص الرجل شعره قصيرًا، أرادت أن تجعل شعرها قصيرًا، وعندما التحق الرجل بالجيش أرادت هي أيضا أن تلتحق بالجيش. أرادت تلك الأشياء لا لسبب إلا لأن (المعيار) تَملّكهن.

لكن ما لم تميزه هو أن الله سبحانه وتعالى شرف كلًّا من الرجل و

المرأة بتمايزهم لا بتماثلهم. في الثامن عشر من مارس، ارتكبت نساء مسلمات تلك الغلطة نفسها. لمدة 1400 سنة أجمع العلماء أن الرجال هم الذين يؤمون الصلاة. كامرأة مسلمة، لماذا تعد إمامة الصلاة قضية مهمة؟ فالذي يؤم الصلاة ليس أعلى روحانية من غيره أو أي شيء من هذا القبيل. لا يعد أمرًا ما أفضل لمجرد قيام الرجل به. فإمامة الصلاة ليست أفضل، فقط لكونها إمامة. لو كانت الإمامة من مهمات المرأة - أو لو كانت أكثر قداسة - إذا لماذا لم يسأل الرسول و صلى الله عليه وسلم خديجة أو عائشة أو فاطمة رضي الله عنهن جميعا - وهن أعظم النساء على مر الزمان - أن يأمن؟ هؤلاء النسوة وعدن بالجنة، ومع ذلك لم يأمن الصلاة أبدا.

لكن الآن، ولأول مرة منذ 1400 سنة، ننظر إلى رجل يؤم الصلاة ونظن بأن " ذلك ليس عدلًا ". نظن هذا مع أن الله سبحانه وتعالى لم يعط للإمام ميزة خاصة؛ ليس الإمام أعلى بعين الله سبحانه وتعالى ممن يصلي وراءه.

من ناحية أخرى، نجد أن المرأة فقط - يمكن أن تكون أمًّا، وأن الله سبحانه وتعالى أعطى ميزة خاصة للأم. أخبرنا الرسول صلي الله عليه وسلم أن الجنة تحت أقدام الأمهات. لكن مهما فعل الرجل فلن يصبح أمًّا أبدًا. إذن لماذا لا يكون ذلك غير عادل أيضاً؟

عندما سئل صلي الله عليه وسلم: مَنْ أَحَقُّ بِحُسْنِ الصُّحْبَةِ؟ قَالَ: (أُمُّكَ ثُمَّ أُمُّكَ ثُمَّ أُمَّكَ ثُمَّ أَبُوكَ) هل هذا شيء عنصري؟ بغض النظر عما يفعله الرجل فإنه لن يستطيع أبدا الوصول إلى مكانة المرأة

ومع ذلك، حتى عندما كرمنا الله سبحانه وتعالى بشيء أنثوي فريد، نبقى مشغولين جدا بمحاولتنا لإيجاد قيمتنا بالرجوع للرجل إلى درجة تمنعنا من تقدير ذلك الشيء الأنثوي الفريد الذي أكرمنا الله سبحانه وتعالى به، أو حتى ملاحظته. نحن أيضًا قبلنا بالرجال معيارًا ، وعندما نقبل الرجال كمعيار، يصبح أي شيء يتميز بأنوثته أمرا أدنى. أن تكوني حساسة يعد إهانة. أن تصبحي أمًّا يحط من قدرك في المعركة بين العقلانية الرواقية التي تعد (رجولية) والرحمة النابعة من الإيثار والتي تعد (أنثوية) تسود سلطة العقلانية.

مادمنا تقبلنا فكرة أن كل ما يملكه ويفعله الرجل هو الأفضل، وكل ما تلا ذلك هو ردة فعل تلقائية: إذا امتلكه الرّجال نريده نحن أيضا. إذا صلّى الرجال في الصفوف الأولى نفترض أن هذا هو الأفضل، ولهذا مريد أيضًا أن نصلي في الصفوف الأولى. وإذا أمّ الصلاة رجال نظن أن الإمام سيكون أقرب إلى الله سبحانه وتعالى ونطلب أيضًا إمامة الصلاة. وبالتالي في مكان ما على هذا الطريق، قبلنا بفكرة مفادها أن امتلاك مكانة قيادية دنيوية هو مؤشر على مكانة الشخص عند الله سبحانه وتعالى.

المرأة المسلمة لا تحتاج أن تحطّ من نفسها، بهذه الطريقة، فالمعيار عندها هو الله سبحانه وتعالى، وهو الذي يعطيها القيمة، وهي ليست بحاجة لرجل ليُقومها.

في الحقيقة، إننا وفي اندفاعنا لمحاكاة الرجال لم نكلّف أنفسنا التوقف للنظر إذا ما كان ما لدينا هو الأفضل لنا. ففي بعض الأحيان

تخلّينا عمّا هو أفضل، فقط لنصبح كالرجال.

قبل خمسين عامًا، أخبرنا المجتمع أن الرجال هم الأفضل لأنهم تركوا المنزل واتجهوا للعمل في المصانع. كنا أمهات ومع ذلك أُخبرنا أن تحرير المرأة يكمن في التخلي عن تربية إنسان آخر لأجل العمل على ماكينة. تقبلنا فكرة أن عملنا في المصنع أفضل لنا في إعلاء أساس المجتمع، فقط لأن رجلًا قام بذلك.

وبعدها، وبعد مزاولة العمل يتوقع منا أن نحوي طاقة فوق طاقة البشر، وأن نكون الأم المثالية والزوجة المثالية وربة البيت المثالية، ونحصل على المهنة المثالية. مع أنه ليس من الخطأ أن تكون للمرأة مهنة، سندرك عاجلًا ما ضحينا به بتقليدنا الأعمى للرجال. سنشاهد أطفالنا وهم يصبحون غرباء عنّا، حينها سندرك الامتياز الذي تنازلنا عنه.

ولهذا والآن فقط - عندما أُعطوا حرية الاختيار - اختار النساء في الغرب البقاء في البيت لرعاية أولادهن. ووفقا لإحصائيات وزارة الزراعة في الولايات المتحدة الأمريكية، فإن 31% فقط من الأمهات ذوات الأطفال الرضع و18% من الأمهات لطفلين أو أكثر، يعملن في وظائف بدوام كامل. ومن بين هؤلاء الأمهات العاملات، وجد استطلاع رأي أجرته صحيفة محتمة بشئون الأسرة في سنة 2000 أن 93% منهن يفضلن البقاء في البيت مع أطفالهن، ولكنهن مجبرات على العمل بسبب " التزامات مالية ". هذه " الالتزامات " فرضت على النساء من خلال المساواة بين الجنسين في الغرب المتحضر،

بينما رُفعت هذه الالتزامات عن النساء المسلمات بسبب التمايز بين الجنسـين في الإسـلام. احـتاجـت الـنساء في الـغرب حـوالي قـرن مـن التجارب ليدركن ميزة مُنحت للنساء المسلمات منذ 1400 عام.

بالنظر إلى مزاياي التي منحت لي لكوني امرأة، سأحطّ من قدري إذا حاولتُ أن أكون الشيء الذي لست عليه - وبكل صدق - لا أريد أن أكونه: رجلًا. بوصفنا نساء لن نصل إلى الحرية الحقيقية إلا إذا توقفنا عن محاكاة الرجال، وقدرنا الجمال في الاختلاف الذي منحنا الله إياه.

إذا خُيّرتُ بين عـدالـة الـعقلانـية الـرواقـية والـشفقة فـسأخـتار الـشفقة. وإذا خيرت بين أن أقـود الـعالـم أو أن تـكون الـجنة تـحت قدمي، فسأختار الجنة.

الرجولة ومظهر القسوة

الأسبوع الماضي اتصلت بي أختي، وكانت تدرس في الخارج منذ بداية الصيف. بطبيعة الحال أسعدني سماع صوتها. وبعد أن سألتها عن أحوالها، سألتها عن مسكنها الجديد لكونها تعيش في بلد مسلم، كنت أشعر بالاطمئنان بأن كل شيء سيكون على ما يرام. لهذا السبب، ما وصفته أختي لي بعد ذلك كان صادمًا تماما. بدأت بوصف مكان يصعب فيه على الفتاة أن تخرج من بيتها دون أن تتعرض لتحرش لفظي من الرجال الذين يمرون بالقرب منها. قالت إن التحرش لم يعد استثناء، بل أصبح أمرًا مألوفًا. بعدها أخبرتني عن فتاة مسلمة كانت تعرفها. كانت الفتاة تستقل سيارة أجرة، وعندما وصلت إلى محطتها الأخيرة دفعت الأجرة للسائق. وفي الكثير من هذه البلدان لا يوجد عداد للمسافة، وبما أن الأجرة متفاوتة لحد ما فإن ما أعطته للسائق أثار غضبه. فاحتدم الشجار بينهما إلى درجة أن السائق أمسك بها من كتفيها وبدأ يهزها بعنف. عندها، غضبت الفتاة وأهانت السائق. فلكمها السائق على وجهها.

عند هذه النقطة، كنت منزعجة للغاية مما سمعت. ولكن ما قالته أختي بعد ذلك كان مدمرًا أكثر. ففي مكان قريب من موقع الحادثة، كان هناك مجموعة من الرجال الذين شهدوا ما حصل وأسرعوا إلى المكان. بطبيعة الحال سنظن أنهم جاءوا لمساعدة الفتاة.

لا، لقد وقفوا يراقبون فقط!

عند هذه النقطة من القصة بدأت بالتساؤل. فجأة وجدت نفسي أشك بكل ما كنت أؤمن به عن معاني الرجولة، تساءلت كيف لرجل بل لمجموعة من الرجال أن يقفوا هناك وينظروا إلى امرأة تمتهن أمامهم، ولا يفعلون شيئا من أجلها. جعلتني أشك في المبادئ التي تُحدد معنى الرجولة في مجتمع اليوم. هل أصبح معنى الذكورية مشوشًا إلى درجة انحطاطه لمجرد رغبة جنسية منزوعة اللجام؟ هل صورة " الفارس بدرعه المتألقة " استبدل بها صور أولاد مستهترين يذرعون الشوارع؟

وأكثر من ذلك جعلتني هذه القصة أفكر فيما يعنيه أن تكون رجالًا مسلما اليوم. تساءلت فيما إذا كانت تعريفاتنا الشائعة اليوم لمعنى الرجولة بوصفنا مسلمين، هي حقاً ما يجب أن نكون عليه. اليوم يتوقع من الرجل أن يكون عقلانيًا غير منفعل، غير معبّر عن مشاعره قاسيًا، لا ينحني. بعدها قررت أن أختبر خلاصة ما يعني أن تكون رجلًا. فما كان مني إلا النظر إلى الرسول صلي الله عليه وسلم.

وأكثر تعريفات الرجولة شيوعًا اليوم هي قلة التعبير عن المشاعر. فما يعتقده الكثيرون هو أن البكاء ليس من سجايا الرجال، بل هو دليل على الضعف. ومع ذلك كان وصف الرسول صلي الله عليه وسلم لهذه السجية مختلفا تمامًا، فعندما حمل الرسول ولد ابنته، وهو في سكرات الموت اغرورقت عيناه بالدموع. عندها قال له أحد الصحابة وهو سعد رضي الله عنه: يا رسول الله ما هذا؟ فأجابه قائلًا

(هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ) (البخاري).

ولكن اليوم لا يُتوقّع من الرجل أن يخفي مشاعر الحزن فحسب، بل لُقّن مبكرًا بأن أي مشاعر أخرى يجب ألا تظهر أبدا. حتى في زمن النبي صلي الله عليه وسلم، كان بعض الرجال يفكرون بهذه الطريقة؛ ففي إحدى المرات حضر قروي مجلسًا للرسول صلي الله عليه وسلم وفيه رأى رسول صلي الله عليه وسلم يقبل أحفاده على رءوسهم. عندها أظهر القروي دهشته قائلًا: " إنْ لي عَشَرَةَ مِنَ الْوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ وَاحِدًا مِنْهُمْ " فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلي الله عليه وسلم: (إِنَّهُ مَنْ لَا يَرْحَمْ لا يُرْحَمْ). (البخاري). في الحقيقة، كان الرسول صلي الله عليه وسلم واضحًا جدًا في إظهاره للمودة. إذ يقول: (إِذَا أَحَبَّ الرَّجُلُ أَخَاهُ فَلْيُخْبِرْهُ أَنَّهُ يُحِبُّهُ) (أبو داود).

وكان الرسول صلي الله عليه وسلم يبدي مودته تجاه زوجاته، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: (كُنتُ أَشْرَبُ في الْإِنَاءِ وَأَنَا حَائِضٌ فَيَأْخُذُهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَضَعُ فَاهُ عَلَى مَوْضِعِ فِيَّ فَيَشْرَبُ، وَكُنْتُ أَخُذُ الْعَرْقَ فَأَنتَهِشُ مِنْهُ فَيَأْخُذُهُ مِنْي، ثُمَّ يَضَعُ فَاهُ عَلَى مَوْضِعِ فِيَّ فَيَنْتَهِشُ مِنْهُ) (صحيح مسلم)

كما كان الرسول صلي الله عليه وسلم يساعد زوجاته في أعمال البيت عكس أسطورة أخرى من الأساطير المُصدقة عن الرجولة. فقيل لعائشة رضي الله عنها: (مَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ يَعْمَلُ فِي بَيْتِهِ؟)

فقالت: (كَانَ بَشَرًا مِنَ الْبَشَرِ يَفْلِي ثَوْبَهُ وَيَحْلِبُ شَاتَهُ وَيَخْدُمُ نَفْسَهُ) (بخاري ومسلم).

ربما إحدى الأساطير الأكثر تداولاً حول ما يجب أن يكون عليه الرجل - هي فكرة أن الرجل يجب أن يكون " قاسيا ". فاللطف يعد صفة أنثوية. ومع ذلك يقول الرسول محمد صلي الله عليه وسلم: (مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ يُحرم الْخَيْرَ كُلَّهُ) (صحيح مسلم).

الكثير من هذا اللطف فقد من التعريف المتحضر للذكورة. إنه من المرعب حقًا أن يعتقد شاب أن تحرشه بامرأة في الشارع رجولة، ومشاهدته لامرأة تُضرب أمرًا لا يخدش رجولته. هذا يجعلك تتساءل فيها إذا كانت الصورة التي رسمناها في مخيلتنا عما هو رجولي يشبه في حقيقة الأمر صورة أحد رجال العصابات في أفلام هوليود أكثر من شبهه بشخصية رسولنا المُفدى صلي الله عليه وسلم.

الأمة

ألق عنك المسميات

أي نـوع مـن المسـلمين أنـت؟ قـد يـبدو هـذا الـسؤال غـريـبًا بـعض الشيء، ولـكن الـجواب بـالنسـبة لـلذيـن يـسعون لـتمزيـق الإسـلام وهـزيـمته ذو أهـمية متزايـدة. ومـا هـو أكثر إزعـاجًـا؛ الـمسميات التي نحددها لأنفسنا.

في عوائلنا؛ قليل من يدعي بأنه لم يختلف مع إخوته قط. عندما يخطئ أحد أفراد الأسرة - حتى لو كان خطأ كبيرًا، أو اتخذ رأيا لا نتفق فيه معه - فلن يكون هناك أي منا من يقرر الانفصال كليًا عن هذه العائلة وتغير اسمه. اليوم للأسف، لا ينطبق هذا المفهوم على أسرة الإسلام.

الـيوم، نـحن لـم نـعد (مسـلمين) فـقط. نـحن الـيوم (تـقدمـيون) و(إسلاميون) و(محافظون) و(سلفيون) و(محليون) و(مغتربون) وكل مجموعة قامت بالانسلاخ كليًا عن الأخرى. لدرجة أننا نسينا تقريبًا أننا جميعا نشترك في عقيدة واحدة.

على الرغم من وجود اختلافات حقيقية في الأمة، فإن شيئاً شديد الأهـمية اتخـذ منحَى خـاطـئًا. في ثـنايـا الإسـلام، الاخـتلافـات لا تعتبر مستساغة فقط، بل تتعداها الى مرحلة الحثّ عليها بوصفها رحمة من الله سبحانه وتعالى. لكن حالما نعنون ونهمش كل من لا نتفق

معه يبدأ سقوطنا. عندما نقبل هذه المسميات ونرسخها، ونجعلها مصدرًا أساسيًا لتحديد الهوية، عندها ستكون النتيجة كارثية.

ونتيجة لذلك سنقيم مخيماتنا الخاصة، نحضر اجتماعاتنا ومؤتمراتنا الخاصة فقط، وسرعان ما يقتصر كلامنا على من يوافقنا الرأي. فالحوار الداخلي ضمن الأمة يختفي، واختلافنا يصبح أكثر وضوحًا وآراؤنا تصبح أكثر تطرفا. وسرعان ما نتوقف عن الاهتمام بما يحدث للجماعة " الأخرى " من المسلمين حول العالم، وكأنما بفعلنا هذا نبتر الأطراف من الجسد الواحد الذي أخبرنا الرسول صلي الله عليه وسلم أننا هو. " الآخرون " الذين لا يزالون إخواننا يصبحون غرباء - وحتى ممقوتين - إلى درجة أننا لم نعد راغبين بأن يشار إلينا باسم العائلة نفسها، بل ويمكن لنا أن نتّحد مع أعدائنا ضدهم.

فجأة، هذه الاختلافات التي كانت يومًا ما رحمة - تصبح لعنة، وسلاحًا لدحر الإسلام. أعداؤنا يتداعون علينا كما تتداعى الأَكَلَةُ على قَصعَتها، وَفْقَ ما جاء في الحديث الشريف الذي رواه أبو داود.

في 18 مارس 2004 نشر مركز " راند " - والذي يعد واحدًا من مراكز التفكير المؤثرة في الولايات المتحدة الأمريكية - تقريرًا يهدف إلى المساعدة على " تمدين" الإسلام من خلال طمسه وإعادة تركيبه بشكل العلمانية الغربية. في أحد أجزاء التقرير المعنون بـ (الإسلام المدني الديمقراطي: الشركاء والموارد والاستراتيجيات)، كتبت " شيرل بنارد " ما مفاده أن " الحداثة، لا التقليدية، هي التي أثمرت في الغرب. تضمن هذا ضرورة التخلي عن عناصر من العقيدة الدينية

الأصيلة، وتحويرها، وتجاهل بعض جوانبها ".

لأجل " التخلي عن، وتحوير، وتجاهل " عناصر معينة من الإسلام تقترح " بنارد " استراتيجية بسيطة: التسمية، والتقسيم، والتحكم. بعد تسمية كل مجموعة من المسلمين تقترح جعل بعضهم في مواجهة بعض. وضمن استراتيجيات أخرى، تقترح بنارد: (تشجيع الخلافات بين المتمسكين بالتقاليد والمتطرفين)، (وإحباط الائتلاف بين المتمسكين بالتقاليد والمتطرفين).

من خلال النجاح بهذا التقسيم وتشجيع (المتحضر) (التقدمي) المسلم، تأمل بنارد بأن تبتدع إسلامًا مدنيًا (ديموقراطيا). إسلامًا أقل رجعية وتطرفًا. وعلى وجه الخصوص هي تأمل أن تبتدع إسلامًا يخضع لهيمنة أجندة المحافظين الجدد.

فإذا كانت الخطوة الأولى لتشويه الإسلام هي باستغلال المسميات الموجودة، فلنقل: " لا .. وشكرا " يخبرنا الله سبحانه وتعالى: ﴿وَاعتَصِموا بِحَبلِ اللَّهِ جَميعًا وَلا تَفَرَّقوا﴾ (آل عمران: 103) مع أننا نقدر هذا الجهد (لتمديننا) نحن وديننا، فإن علينا أن نعتذر. أنت تقوم بإصلاح شيء ما عندما يكون فاسدًا أو قديمًا، ولا تقوم بتصليح شيء ما إلا إذا كان مكسورًا.

على الرغم من كونه شيئًا جميلًا منكم أن ترغبوا في نعتنا بصفة (الحداثة) أو (الاعتدال)، فإننا نستطيع الاستغناء هذا الاطناب. الإسلام في مُجمَله هو دين الاعتدال، وكلما ازداد تمسكنا بقواعده،

ازداد اعتدالنا، والإسلام بطبيعته أبدي وعالمي، وبالتالي إذا كنا مسلمين حقًا، فسنبقى دائمًا متحضرين.

نحن لسنا (تقدميين)، ولسنا، (محافظين)، ولسنا (سلفيين جددًا)، ولسنا (إسلاميين)، ولسنا (تقليديين)، ولسنا (وهابيين)، ولسنا (مغتربين)، ولسنا (محليين). شكرًا، ولكننا سنواصل حياتنا دون مسمياتكم. نحن فقط مسلمون.

كن مسلما باعتدال

في أول مـناظـرة رئـاسـية للسـيناتـور جـون كيري عـام 2004، بـدأ المناظرة بالإجابة عن السؤال الأول الموجه إليه، حيث أشار إلى أن أمريكا بحاجة إلى عزل " المسلمين الإسلاميين الراديكاليين ".

" لدي خطة أفضل لخوض الحرب على الإرهاب من خلال البدء بـعزل المسـلمين الإسـلاميين الـراديكاليين؛ وعـدم الـسماح لـهم بـعزل الولايات المتحدة الأمريكية ".

في بادئ الأمر، بدا التصريح وكأنـه يحتوي على تكرار، وغير قائم على أساس علمي؛ فنحن إذا أردنا تعريف المسلم، فسنعرفه بأنه من يتبع الإسلام، ومن ثم فهو (إسلامي) حسب التعريف نفسه. فقوله: المسلمون الإسلاميون هو كقوله: الأمريكيون الأمريكان.

فهل كان ذلك تكرارًا من جون كيري فحسب؟ أم ربما كان تصريحه معبًرا عــن معنى آخـر بـشكل لـم يـتصوره كيري نـفسه؟ هــل كـل المســلمين إســلامــيون؟ حــسناً الــحقيقة هي لا. على الأقــل لــيس الجيدون منهم.

أكثر فأكثر، الفرضية الضمنية تُظهر الإسلام على أنه المشكلة، فإذا كان الإسـلام كمعتقد بـجوهـره راديـكالـيًا، فـكلما أصـبح الإسـلام أقـل راديكالية كان ذلك أفضل. ومن ثم فإن " المسلم المعتدل " - هذا

المصطلح المرغوب فيه كثيرًا - هو فقط مسلم بصورة معتدلة، وكذلك سيئ بصورة معتدلة. قول كهذا أشبه بالقول لأحدهم بأن يكون أسداً بصورة معتدلة لكي لا يكون شرسًا للغاية. وفي المقابل فإن المسلم شديد الإسلامية هو بتعريفه (راديكالي) - مسلم راديكالي الإسلام - ويجب التعامل معه عن طريق عزله.

في الحقيقة أدركت مونا ميفيلد هذه القوانين عندما دافعت عن زوجها، الذي اتهم خطأ بالمشاركة في تفجيرات إسبانيا، حيث صرحت لوكالة أسوشيتد برس الإخبارية عن اعتناق زوجها للإسلام قائلةً: " لدينا إنجيل في بيتنا. هو ليس أصوليًا، وكان يعتقد أن الإسلام شيء فريد ومختلف جدًا ".

لإثبات براءته حاولت ميفيلد أن تقلل من أهمية التزام زوجها بالإسلام حتى إنها شعرت بالحاجة لتبرير اعتناقه الإسلام، وكأن مجرد اعتناقه للإسلام هو الجريمة المتهم بها. وأخذ شهريار أحمد مدير المسجد الذي كان يرتاده المتهم طريقة مماثلة للدفاع عنه، (كان يعد معتدلا)؛ بهذا أخبر أحمد الصحفيين. " كان ميفيلد يأتي إلى صلاة الجمعة ويخلع حذاءه، ويغسل قدميه العاريتين، ويجلس على السجاد ليسمع الخطبة. لم يكن صلّي الصلوات الخمس في المسجد كما يفعل بعض المسلمين الملتزمين ". المضمون هنا هو أن براءة براند ميفيلد أو جنايته كانت ذات علاقة بعدد المرات التي كان يرتاد فيها المسجد وأصر أحمد قائلًا " كان ينتمي الى الطرف الأقل تدينا ".

تلك الأيقونات " الأقل تدينًا " - لما يجب أن يكون عليه المسلم

المثالي - موجودة في أرجاء الساحة الإعلامية. على سبيل المثال إرشاد مانجي المحللة الإعلامية وكاتبة الكتاب (المشكلة في الإسلام)، هي أحد تلك الأيقونات المشهورة. مانجي كاتبة واسعة الانتشار ظهرت في كثير من البرامج المشهورة وحازت جائزة أوبرا للجرأة، ومع أن مانجي عرفت نفسها بأنها " مسلمة رافضية " فإن الإعلام يصفها بأنها نموذج للمسلم الملتزم. يصفها دانيال بايبس العضو في مجلس إدارة منظمة السلام في الولايات المتحدة بأنها مسلمة شجاعة ومعتدلة وعصرية. ومن المثير للتهكم، أن الصلة بين أفكار مانجي والإسلام أكثر ضعفًا. حتى من أفكار بايبس والسلام. وصفت مقالة في الواشنطن بوست التجلي الذي بدا لها عن الصلاة - التي هي حجر الزاوية في الدين الإسلامي:

" بدلًا من ذلك، قالت إنها بدأت بالصلاة بمفردها، بعد غسل قدميها ويديها ووجهها، ثم جلست على سجادة مخملية وتوجهت إلى مكة. في النهاية، توقفت عن هذا أيضًا لأنها لم تكن ترغب في السقوط في الخضوع الأحمق والطاعة العمياء ". لمانجي الحق بأن تدلي برأيها في هذه العبادة، والتي هي من عبادات الإسلام التي يمارسها مليار ونصف المليار من سكان العالم، ولها الحق أن تترك أيًا من هذه العبادات أو كلّها. لكن بدلًا من أن تكون مجرد امرأة عديمة القيمة قررت أن تترك الصلاة التي هي ركن رئيس في عقيدتها - ما دامت عقيدتها هي الإسلام كلٌ هذا يُصَور بأنه صراع من أجل الحرية. صراع ضد الاستبداد، ويصبح محل تبجيل، وتوصف بأنها " شجاعة

وجريئة " ونموذج للمسلمين غير الإسلاميين الذي يستحق الاتباع.

أن يكون هذا نموذجًا، هو مثل الطلب من أحدهم الا يكون شديد السَّواد أو شديد اليهودية، وكأن هذه الأشياء بجوهرها سيئة أو عنيفة، وكل من يناضل ليصبح أسود بصورة معتدلة أو يهوديًا بصورة معتدلة هو مناضل من أجل الحرية. على سبيل المثال أخبرت مانجي الواشنطن بوست قائلة: العنف سيحدث، فلماذا لا نجازف بحدوثه من أجل الحرية؟

نعم الحرية شيء جيد. قد تكون مانجي قالتها بطريقة أفضل، وقد يكون كيري قالها بلطف. لكن أستاذ إدارة الأعمال في جامعة إمبريال فالي في كاليفورنيا قالها بطريقة أكثر صراحة: " الطريقة الوحيدة لإنهاء الإرهاب الإسلامي هي إقصاء الدين الإسلامي ".

لكن بغض النظر عن طريقة التعبير عن هذه الفكرة، فإن الشيء الوحيد المؤكد: في هذه الأيام؛ بالنسبة للإسلام؛ الأقل هو الأفضل.

المأساة التي يصعب وصفها وحالة أمتنا

أظن أن هناك مكانًا في عقل الإنسان نختبئ فيه عندما لا نجد مكانا آخر للفرار. وربما يوجد مكان في قلب الإنسان يستذكر فيه دائمًا المأساة التي لا يمكن تصويرها. ولكن بالنسبة للأناس في سوريا وفلسطين اليوم، هذه المأساة هي ليست صورة في العقل أو القلب هي الواقع الوحيد الذي يعرفونه.

وأنا أقف عاجزة، أراقب المذابح في تلك البلاد، أجد نفسي أبحث عن مفر؟ أبحث عن مكان في داخل عقلي، مكان أستطيع أن أجد فيه معنى لما لا معنى له، وأتخيل فيه أن هذا لا يحدث حقًا. أتذبذب بين حزن وغضب وكآبة، ولكن في النهاية أرجع إلى سؤال يتكرر بلا هوادة: لماذا؟

لماذا يحدث هذا لنا؟ لماذا نعاني في كل أنحاء العالم؟ لماذا نحن عاجزون عن إيقاف ذلك؟ لماذا نحن ضعاف سياسيًا في الدولة التي نستوطنها؟ لماذا نصرخ بأعلى صوتنا، ونكتب رسائل، ونتصل بنواب في البيت الأبيض، ولا نحصل على شيء منهم سوى أقاويل متكررة مثل: من حق إسرائيل الدفاع عن نفسها. لماذا نحن في هذه النقطة؟ لماذا؟ يجب أن نسأل لماذا؟

يجب أن نتوقف ونتفحص جيدًا أين نحن كأمة؟ وماذا أصبحنا؟

مر وقت من الزمان كان فيه المسلمون أعزة في العالم، وقت أحبنا فيه أصدقاؤنا، وخشي منا أعداؤنا. اليوم أصبحنا أكثر الجماعات استهدافا وذمًا وكرهًا في العالم. بيّنَ استفتاء قامت به منظمة جالوب مؤخرا أن أكثر من نصف الأمريكيين قالوا: إن رأيهم في الإسلام غير إيجابي للغاية، أو ليس إيجابيًا إطلاقًا، بينما اعترف 43% من الذين شاركوا في الاستفتاء أنهم يضمرون مشاعر فيها شيء من العنصرية تجاه المسلمين، وهذه النسبة أكثر من ضعف النسبة الواردة عن النصارى أو اليهود أو البوذيين.

ولكننا لسنا مكروهين فحسب؛ بل وفي الكثير من الأماكن نحن نعذب ونقتل وننهب. حتى في المكان الذي لا تكون فيه مستهدفين جسديًا، تنتزع منا حقوقنا، ونتهم زورًا بل وحتى نسجن زورًا. في الحقيقة الكره السائد للمسلمين أصبح عميقًا جدًا، بحيث أصبحت الخطابات المعادية للمسلمين هي الاختيار المقبول للتزمت. إنها مقبولة جدًا بحيث يستخدمها من يريد النجاح سياسيًا.

هذه الحالة التي نجد أنفسنا فيها بوصفنا أمة مسلمة، قد تم وصفها بعمق منذ أكثر من 1400 سنة، عندما قال الرسول صلي الله عليه وسلم لصحابته: (يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كما تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا) فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ قَالَ: (بَلْ أَنتمَ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءُ كَغثاءِ السَّيْلِ وَلَيَنْزِعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُم الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهَنَ). فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْوَهَنُ؟ قَالَ: (حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ) (سنن أبي داوود).

كما تنبأ الرسول صلى الله عليه وسلم، فإن الناس بالفعل استدعى بعضهم بعضًا للاعتداء علينا، كما يدعو أحدهم الآخرين ليشاركوه في الطعام. في هذا الحديث يصفنا الرسول صلي الله عليه وسلم بأننا سنكون مثل زبد البحر. إذا راقبت الأمواج المنسابة في المحيط، فستشاهد أن الطبقة الرقيقة من الزبد على وجه الماء هي عديمة الوزن وقليلة القيمة. يمكن لأقل نسمة أن تدمّرها، فهي لا تمتلك القوة الكافية لتحديد مسارها. بدلا من ذلك تذهب أينما يأخذها الماء.

هذه هي حالنا كما وصفها الرسول صلي الله عليه وسلم. يجب علينا العودة إلى السؤال الذي طرحناه آنفاً. لماذا؟

يعطينا الرسول صلى الله عليه وسلم إجابة واضحة لهذا السؤال. وضح أن القلوب سيملؤها الوهن، عندما سئل عن معنى هذه الكلمة، أجاب الرسول صلي الله عليه وسلم بكلمات قليلة حملت حقيقة عميقة المعنى، حيث قال: إن الوهن هو: حب الدنيا وكراهية الموت. وصف الرسول صلي الله عليه وسلم أناسًا استحوذت عليهم الدنيا، بحيث جعلتهم أنانيين وماديين وقصيري النظر وغافلين عن لقاء الله سبحانه وتعالى. وصف أناسًا أصبحوا ماديين جدًا بحيث فقدوا أخلاقهم.

في مجال الأخلاق تتغير حالة الناس، إما من جيد إلى سيء، أو من سيء إلى جيد. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَومٍ حَتّى يُغَيِّروا ما بِأَنفُسِهِم﴾ (الرعد: 11). بناءً على ذلك، يمكن أن يتغير

حال الناس بسبب أخلاقهم من قوة عظمى في العالم إلى زبد المحيط. وبتغيير القلوب والأخلاق فقط، يستطيع ما كان يومًا زبد المحيط أن يصبح مرة أخرى قويًا.

لذلك، كمسلمين لا ينبغي لنا أن نفقد الأمل، فقد وعد الله سبحانه وتعالى بنصر دينه. السؤال هو، هل يا ترى سنكون أنا وأنت جزءًا من ذلك النصر؟

يذكرنا الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم بقوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: 139)

إنه فقط بإيماننا الخالص وكفاحنا، سيغير الله حالتنا. فلأجل أولئك الذين ينزفون في سوريا، وفلسطين وكل أنحاء العالم اليوم، نحن كأمة يجب أن نستيقظ ونرجع إلى الله سبحانه وتعالى.

انشقاق البحر الأحمر

عندما وقف النبي موسى عليه السلام أمام البحر الأحمر، اقترب طاغيةٌ وجيشُه وراءَه. بعض الذين كانوا مع موسى عليه السلام بدءوا بالانقسام. لم يروا سوى الهزيمة ماثلة أمامهم: ﴿فَلَمّا تَراءَى الجَمعانِ قالَ أَصحابُ موسى إِنّا لَمُدرَكونَ﴾ (الشعراء: 61).

لكن أَكان لموسى عليه السلام أعين مختلفة. عيناه كانتا روحانيتين نظرتا إلى ما وراء وهم المعاناة والهزيمة. نظر إلى ما وراء ذلك. بقلب متصل بالأعلى، ناظرًا إلى نفس الوضع الذي كان يبدو مستحيلًا، لم يرَ موسي عليه السلام الا الله سبحانه وتعالى فقط: ﴿قالَ كَلّا إِنَّ مَعِيَ رَبّي سَيَهدينِ﴾ (الشعراء: 62). وحقًا فعل الله سبحانه وتعالى له ذلك تمامًا: ﴿فَأَوحَينا إِلى موسى أَنِ اضرِب بِعَصاكَ البَحرَ فَانفَلَقَ فَكانَ كُلُّ فِرقٍ كَالطَّودِ العَظيمِ وَأَزلَفنا ثَمَّ الآخَرينَ وَأَنجَينا موسى وَمَن مَعَهُ أَجمَعينَ ثُمَّ أَغرَقنَا الآخَرينَ﴾ (الشعراء: 63 - 66)

قد يسأل أحدهم لماذا نروي قصة قديمة. السبب في ذلك لأنها لم تكن مجرد قصة أو مصادفة. إنها إشارة أبدية ودرس أبدي. في الآية التي تليها، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ في ذلِكَ لَآيَةً وَما كانَ أَكثَرُهُم مُؤمِنينَ﴾ (الشعراء: 67).

إنها علامة على حقيقة الله سبحانه وتعالى وأسرار هذا العالم. إنها

علامة على أن الطغيان لا ينتصر أبدا وأن العقبات هي وهم فقط خلقت لاختبارنا وتدريبنا وتمحيصنا. وعلاوة على ذلك، تلك القصة هي إشارة إلى مصدر النجاح، ورؤية لماهية النجاح وصورته الحقيقية في الوقت الذي نظن فيه أننا محصورون ومهزومون وضعفاء.

قد يسأل البعض: لماذا إذا كنا مع الله سبحانه وتعالى حقًا لا يتحقق النصر بسهولة؟ وقد يسأل آخرون لماذا لا يعطي الله سبحانه وتعالى الصالحين النصر بدون مشقة كبيرة وتضحيات. أعطى الله سبحانه وتعالى الإجابة عن هذا السؤال وقال:

﴿وَما أَرسَلنا في قَريَةٍ مِن نَبِيٍّ إِلّا أَخَذنا أَهلَها بِالبَأساءِ وَالضَّرّاءِ لَعَلَّهُم يَضَّرَّعونَ﴾ (الأعراف: 94).

هنا يقول الله سبحانه وتعالى إن الهدف من الشدائد هو الوصول إلى درجة من التضرع. التضرع هو تواضع لله سبحانه وتعالى، ولكنه ليس فقط تواضعًا. لتفهم حقيقة التضرع، تخيل نفسك في وسط محيط، تخيل أنك وحيد في قارب، وقد جاءت عاصفة هوجاء وتحولت الأمواج إلى جبال تحاصرك. الآن تخيل توجهك إلى الله سبحانه وتعالى في تلك اللحظة وطلبك للعون منه. أي حالة من الاحتياج والذهول والاتكال وكمال التواضع ستكون؟ هذا هو التضرع. يقول الله سبحانه وتعالى إنه يخلق حالات من الشدائد لكي يمنحنا هذه الهبة. ليس لله سبحانه وتعالى حاجة أن يضعنا في المصاعب، وإنما يخلق هذه المواقف لكي يسمح لنا بالوصول إلى حالة القرب منه التي لا يمكن أن نصل إليها بدون تلك الشدائد.

هبة التواضع التي لا تقدر بثمن، والقرب والتوكل التام هو ما حباه الله المصريين؛ الله أكبر.

يذكر الله سبحانه وتعالى هدفًا آخر لتلك الصعوبات والشدائد؛ يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَطَّعناهُم فِي الأَرضِ أُمَمًا مِنهُمُ الصّالِحونَ وَمِنهُم دونَ ذلِكَ وَبَلَوناهُم بِالحَسَناتِ وَالسَّيِّئاتِ لَعَلَّهُم يَرجِعونَ﴾ (الأعراف: 168).

في سورة آل عمران يخبرنا الله سبحانه وتعالى ﴿إِن يَمسَسكُم قَرحٌ فَقَد مَسَّ القَومَ قَرحٌ مِثلُهُ وَتِلكَ الأَيّامُ نُداوِلُها بَينَ النّاسِ وَلِيَعلَمَ اللَّهُ الَّذينَ آمَنوا وَيَتَّخِذَ مِنكُم شُهَداءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظّالِمينَ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذينَ آمَنوا وَيَمحَقَ الكافِرينَ أَم حَسِبتُم أَن تَدخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمّا يَعلَمِ اللَّهُ الَّذينَ جاهَدوا مِنكُم وَيَعلَمَ الصّابِرينَ﴾ (آيه: 140 - 142).

هنا، يصف الله سبحانه وتعالى بأن الهدف من المصاعب هو التمحيص؛ التمحيص هي الكلمة نفسها المستخدمة لوصف عملية تنقية الذهب وتخليصه؛ فالذهب مع كونه معدنا ثمينا لكنه مليء بالشوائب، فمن خلال التمحيص بالنار، تزال الشوائب من الذهب. هذا ما يفعله الله سبحانه وتعالى مع المؤمنين، من خلال الابتلاء، ينقي الله المؤمنين تمامًا مثلما يُنقى الذهب بالنار.

الله سبحانه وتعالى هو الذي يخرج الحي من الميت. أحيانًا من بعد موتنا. لا تظنوا ولو للحظة واحدة أن ما يحدث كان بدون هدف، هدف عميق وجميل ومُحرّر للنفس.

وبغض النظر عما إذا كنا اليوم في مصر أو خارجها، فذلك ليس أمرًا مهمًا. مصر هي طرف واحد من جسدنا. تنقية مصر هي تنقية لكل أمتنا كجسد. إنها تنقية لي ولك. إنها فرصة لنسأل أنفسنا عما نتعلق به. ما الذي يخيفنا؟ وما الذي نكافح من أجله؟ وما الذي نصمد لأجله؟ وأين نحن ذاهبون؟

عندما يكون الجسم في حالة نوم عميق جدًا، إغماءة، فبرحمته الواسعة سبحانه وتعالى يرسل لنا نداء استيقاظ، إنه من خلال رحمته الواسعة فقط يرسل لنا حياة حيث كان هناك موت. لم نكن نتعظ فأرسل لنا علامة، كنا نيامًا، فأيقظنا. عبدنا هذه الحياة، وفضلنا ممتلكاتها المادية على حرية روح متمسكة بالله سبحانه وتعالى ولا تخشى إلا إياه، فَحررنا.

كنا مستعدين لتصديق أن عدونا هو من خارج أنفسنا، وهو المتحكم فينا. وهذا وهم أيضًا. العدو بداخلنا. كل أعدائنا الخارجيين هم مجرد تجسيد لأمراضنا. لذلك إذا أردنا قهر هؤلاء الأعداء، يجب علينا اولاً أن نقهر العدو الذي بداخلنا. ولهذا يخبرنا القرآن الكريم: ﴿لَهُ مُعَقِّباتٌ مِن بَينِ يَدَيهِ وَمِن خَلفِهِ يَحفَظونَهُ مِن أَمرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَومٍ حَتّى يُغَيِّروا ما بِأَنفُسِهِم وَإِذا أَرادَ اللَّهُ بِقَومٍ سوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَما لَهُم مِن دونِهِ مِن والٍ﴾ (الرعد: 11).

يجب أن نقهر الطمع والأنانية، والشرك ومخاوفنا القصوى، والحبّ والأمل والاعتماد على أي شيء غير الله سبحانه وتعالى. يجب أن نقهر حب الدنيا الذي هو أصل كل عللنا وأمراضنا.

عـندمـا تـكون نـفسك حـرة فـلن تـسمح لأي أحـد أن ينتزع مـنك حريتك. وعندما تملك الحرية الداخلية تستطيع أن تنظر إلى ما وراء الصعاب، إلى قاهر الصعاب. عندما تكون نفسك حرّة ستصبح غير قـابـل لـلاسـتعباد، لأن الاسـتعباد فـقط لـمن هـو مـتعلق بغير الله سـبحانـه وتـعالى. تسـتطيع أن تهـدد فـقط الـشخص الـذي يـخاف الـفقدان. تكون لـك السلطة فـقط على مـن يـحتاجك، أو يـريد مـنك شيئًا تـملك أنـت الـقدرة على سـلبه. هـناك شيء واحـد فـقط لا يـمكن لأي شخص القدرة على سلبه منك: الله سبحانه وتعالى.

فعندما نكافح، فإننا نكافح لتحرير أنفسنا. إنها معركة لتحريرنا من طغيان أنفسنا وشـهواتـنا. إنـها مـعركـة لتحـريـرنـا مـن صِـلاتِـنا الـزائـفة واعتماداتنا، ومن كل ما يتحكم بنا وكل ما نعبد، عداه سبحانه وتعالى. إنها معركة لتحريرنا من عبودية أنفسنا. فإذا كنا عبادًا للدولار الأمريكي أو لرغباتنا أو مركزنا أو غنانا أو مخاوفنا، ستكون تنقية مصر تنقية لنا جـميعًا. لهـذا الـسـبب تـضمنت مـعادلـة الـنجاح الحقيقي في الـقرآن الكريم عنصرين: الصبر والتقوى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اصبِروا وَصابِروا وَرابِطوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُم تُفلِحونَ﴾ (آل عمران: 200).

ولهذا إذا راقبنا ما يجري في مصر اليوم، وكأنه مشهد يحصل خارج أنـفسنا ومـن دون أن نـحاول تطهـير وفـحص وتغيير أنـفسنا وحـياتـنا حقًا، نكون قد أضعنا الهدف وراءه.

وفي المحصلة، لن يكون هناك بحرٌ يُشقْ أمام أعيننا في كل يوم!

شعر

رسالة لكِ

يصعب وصف الحرية. فما أعمقها وما أصدقها بالنظر عبر الفوضى والصناديق الفارغة والصور الجوفاء!! رأيتكِ يا دنيا تضعين حجابًا فوق حجاب على عيني تحاولين امتلاكي وخداعي واستعبادي بأكاذيبك.

بينما الحقيقة هي أنك لم تستطيعي إعطائي قطرة ماء عندما وقفت متوسلة على بابك. كنت راكعة أمامك على ركبتي، وبأشد الحاجة إليك كي تملئيني.

ما أراه الآن هو ومضة من وضوح، لا يمكن إلا لطعنات خيبة الأمل الأبدية أن تنحتها. أجلس هنا محاطة بأتباعك؛ جيشك الكاذب الذي بُعث ليبقيني مكبلة بالقيود، ولكني لن أصبح أسيرتك بعد الآن. لم أعد تلك الفتاة الصغيرة الساهرة في الليل مُسهّدةً تفكر فيكِ. لم أعد تلك الطفلة المكسورة القلب التي تذرف دموعها حرصًا عليكِ. حُبي غير المتبادل لن يستطيع أن يكسرني بعد اليوم. لن تكسريني. لن أنحني لبريقك ووعودك الكاذبة. لم أُعد من أتباعك المخلصين، واقفة أمام عرشك المزيف. دموعي لم تعد ملككِ. قلبي لم يعد ملاذك.

لن تستطيعي العيش هنا بعد الآن.

سافرت كثيرًا لأصل إلى هنا. أحيانًا كانت هناك صحاري حيث كل

ما احتجته منكِ كان قطرة ماء، ولم تستطيعي منحي إياها. وأحيانًا كانت هناك عواصف، حيث كل ما احتجته منك ومضة من نور تهدي طريقي. وسألتك المرة تلو الأخرى لتعطيني شيئًا لا يمكنك منحي إياه، فكل ما لديك هو بهرجة وتفاخر وعملة مزيفة. ومن ثم وجدت نفسي المرة تلو الأخرى وسط صحارى بلا ماء، وظلمات بلا نور. ولكنني لم أعد أمَتَكِ، بعد أن جاء رجل ليحررني من هذا. رجل قدم ليحررني من عبوديتي هذه للعبد، ويأخذ بيدي إلى عبودية رب العباد.

أنا أحزن

رفعت رأسي

مرة أخرى

فقط لأرى

أن الشمس قد غربت،

والأشجار قد نامت،

والكل قد عاد إلى مسكنه.

أنا أحزن

السماء التي كانت صافية،

الآن يكسوها الضباب.

طريقي، لم أعد أراه.

لماذا أحاول .. إذا كان كل شيء رماديًا؟

أنا أحزن

اليوم أحزن

على الذي فُقِد.

أهلي المنسيون

ما زالوا يجثون على ركبهم

أمام إله ثلج في الربيع

أنا أحزن

نسوا ذلك الدعاء

ولمن يجب أن يدعوا

استبدل الجوهر

بشعائر رتيبة

رموز فارغة

قلوبهم .. مرهقة،

رثة ومنهكة

أنا أحزن

نحن أناس

مهزومون .. ولكننا لسنا مقهورين.

ومع ذلك

أشعر برجوع دمي.

سأقف.

سأحاول.

ومن خلال حسرتي،

سأرى ..

أن هناك أناسًا لا يمكن استعبادهم.

ولاء .. لا يمكنك شراءه.

الأرض يمكن أن تحتل ..

أما الروح فلا.

من وراء دموعي

سأفهم ..

أهلي اليوم ينتحبون.

ولكن غدًا .. الموت سيموت

حين تنجب دموعهم أرضًا

فيها..﴿لا خَوفٌ عَلَيهِم وَلا هُم يَحزَنونَ﴾ (البقرة: 274)

خواطري فقط

حزن غريب، هناك اليوم أسىّ ليس من النوع الذي يتركك خاليًا أو وحيدًا أو حتى محتاجًا؛ إنه النوع الساكن، النوع الذي يأتي من درجة معينة من الإدراك، بل حتى الرضا.

نظرت إلى هذه الصورة اليوم، وفي كل مرة أنظر فيها، أجد الدّموع تملأ عينيَّ. إنها صورة غروب مذهل على الساحل. وفوقها هذه الآية: ﴿رَبَّنا ما خَلَقتَ هذا باطِلًا سُبحانَك﴾ (آل عمران: 191).

وذلك هو كل ما في الأمر، كل هذا الحزن والحوادث والابتسامات والأمان والألم والحب والفقدان والتضحية ليس عبثاً، ليس بلا هدف، ليس خطأً أو نوعا من أنواع السهو أو مسار أحداث تلقائية.

نظرت إلى تلك الصّور. وفجأة ملأني شعور عميق بحنين إلى زمن، لا أثر له في ذاكرتي. ﴿وَإِذ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَني آدَمَ مِن ظُهورِهِم ذُرِّيَّتَهُم وَأَشهَدَهُم عَلى أَنفُسِهِم أَلَستُ بِرَبِّكُم قالوا بَلى شَهِدنا أَن تَقولوا يَومَ القِيامَةِ إِنّا كُنّا عَن هذا غافِلينَ﴾ (الأعراف: 172).

غلب علي شعور بافتقاده. أفتقده. أفتقد وجودي معه أفتقد وقتا كان أو سيكون. وقتا مؤكدًا جدًا وكأنه حدث أصلًا ؛ لهذا عندما يخبرنا الله سبحانه وتعالى عن الآخرة في القرآن الكريم يستخدم صيغة الماضي.

عندما تقع في حب عمل فني ستموت شوقًا لكي تلقى الفنان. أنا تلميذة في معارض غروب شمس المحيط الهادي، وطلوع البدور على المحيط، ورؤية الغيوم من الطائرة، وغابات الخريف في مدينة رالي وأول سقوط للثلج. سأموت شوقًا للقاء المبدع، ﴿وُجوهٌ يَومَئِذٍ ناضِرَةٌ إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ﴾ (القيامة: 22 - 23).

تأمل عن الحب

كل هذا الحب. كل قسم. كل جزء من كل حب في هذا العالم. الحب الذي به يكتبون الأشعار. حب الروايات الساحرة. الحب الذي يتغنون به. الحب الذي حاولوا أن يصوروه في الأفلام.

حب الأم لابنها، وطفلة لأبيها. الحب الذي يحرّر. الحب الذي يستعبد. الحب الذي تفوز به. الحب الذي تخسره. الحب الذي تلاحقه. الحب الذي تعيش لأجله. الحب الذي تدرك أنك قد تموت من أجله. الحب الذي يجعل الرجال ينزفون. الحب الذي قوتلت بالسيوف من أجله. الحب في الروايات الخيالية والمأساوية.

كلها مجرد انعكاس.

صدى لمصدر واحد. لحب واحد تعرفه أنت وأعرفه أنا، لأننا عرفناه من قبل أن نتمكن من المعرفة. أُحببنا من قبل أن تتمكن من الحب. أُعطيت قبل أن تتمكن أنت من العطاء، أو تعلم ما تعطي، إنه الحب الذي خُلق قلبك ليدركه. إنه الحب الذي يخلق ويدعم كل حب. إنه الحب الذي كان في السابق، وسيبقى بعد ما يفنى كل شيء.

إنه الحب الذي كان في السابق وسيبقى بعد أن ينتهي الصدى كله.

دعوت اليوم من أجل السلام

وُجدت نفسي اليوم، أدعوك من أجل السلام

غصت في فكري وخرجت منه آلاف المرات

أعلم أنك سمعتني

أعلم أنني لم أكن وحيدة في تلك الغرفة

أرتجف من فرط الخوف من الخوف

الوحدة المفجعة

دعوتك جاثية على يدي، وعلى ركبتي.

ألصقت جبيني في الأرض.

لو أمكنني الدنو أكثر من ذلك، قسمًا، لدنوت.

لأن هذا هو العجز، أصدق أنواع العجز.

الـنوع الـذي يجعلني مـتيقنة أن لا شيء على الإطـلاق، لا ورقـة أو دمعة أو بسمة إلا بإرادته

اليوم تجلت لي فكرة

ليست للمرة الأولى

هذه الدنيا، دنيا، ليست دار هناء، هي بهارج فقط

هي الدار التي تشعر فيها بالجوع والبرد

هي الدار التي تشعر فيها بالقلق والخوف

المكان الذي يعتريه البرد

شديد البرودة أحيانا

هي المكان الذي يتحتم عليك فيه مفارقة الأحبة

حيث لا تستطيع أن تتعلق بشيء؛ لأنك وإن تعلقت به، فتعلقك هذا لن يبقيه، ولن يسبب لك هذا التعلق سوى الألم عند زوال ما تعلقت به.

المكان الذي فيه السعادة والحزن ليسا إلا لاعبين على مسرح ينتظران فقرتها اللاحقة..

يتنافسان على حيازة أضوائه

المكان الذي فيه تسقطك الجاذبية ويدميك العجز

المكان الذي يتواجد فيه الحزن، لأن وجوده حتمي

ودموعك تتساقط لتذكرك بمكان من غير دموع

مكان من غير دموع

أليس ذلك المكان هو ما نقصد؟ أليست الجنة ذلك المكان؟

المكان الذي وصفه الباري، دومًا المرة تلو الأخرى بطريقتين:

﴿لا خَوفٌ عَلَيهِم وَلا هُم يَحزَنونَ﴾

لكني لا زلت حبيسة الدنيا، ألست كذلك؟

أثر جرحي يذكرني بذلك

الحرق الذي على يدي ترك أثرًا أحبه،

أحبه؛ لأنه يذكرني كم أنا عاجزة.

يذكرني بأنني إنسان،

إنسان يحترق. ينزف. ينكسر. ثم تبقى في جسدي الندوب

نعم. مازلت هنا. هنا أسقط. هنا أبكي

هنا، أيضًا ملأت فراغي، وإلى التواضع رفعتني، وإلى إدراك حجم ضعفي، وشدة احتياجي إليك

ومن ثم أنقذتني أنت من هذا الضعف

حقًا فعلت

حقًا.

مثلما أنقذت يونس وموسى وأمه، أنقذتني

أنت السلام للمسالمين

أنت القوة للأقوياء

أنت منار الحقيقة في عاصفة الأكاذيب

فوجدت نفسي أدعوك اليوم طلبًا للسلام

عن معاناة الحياة

ذكرتك اليوم

ذكرتك وتذكرت تلك الكلمات التي أخبرتني بها

أخبرتني بطريقة امتازت بالكمال

هدّأت ضربات قلبي

وأرجعت لي أنفاسي

أخبرتني بتلك الكلمات التي مازلت أحملها

كلمات ترفعني، تملؤني، وتمحو الإنهاك

لأني فوق ما أعانيه من ألم أشكو الإنهاك

أشعر كأنني عشت هذه القصة لألف سنة

وأنا مستعدة لأن أنام

أنا مستعدة لأن أرحل

أنا مستعدة لنهاية القصة الآن

أنا مستعدة لأن أشعر بسلامك

ونبرات صوتك

تخبرني بأنني قد أتممت المهمة، وفُزت، ووصلت

ولكنني أعرف، هذا المكان أعرفه

كنت هنا من قبل

سأنام الآن، سأنام

أرجوك لاتسأل

لا تسأل أرجوك

فقط دعني أنام

فقط دعني أنام وكلماتك فوق لساني:﴿يا أَيُّهَا الإِنسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدحًا فَمُلاقيهِ﴾ (الانشقاق: 6)

السكون

ما أجمل الشمس في الصباح الباكر! هي تصنع شيئًا للأشجار لا تراه في أي وقت آخر من أوقات النهار. أظن أننا جميعًا نريد الشيء نفسه مكانًا هادئًا، ربما ولو للحظة واحدة فقط، نغمض فيه أعيننا ونكون فيه على ما يرام.

ولو لمجرد ثانية واحدة الا نشعر بالقلق على شيء، أو نحزن على أمر ما، ولا نتمنى شيئًا لا نملكه، أو لا نستطيع امتلاكه فقط أن نكون هناك، ونكون على ما يرام، ساكنين، هادئين، في داخلنا. ربما هذا هو سر جمال ذلك الوقت من النهار: السكون

والأمل أن يكون هذا اليوم مختلفا.

موتوا قبل أن تموتوا

أخبرني بأنني قادرة على الضياع

أخبرني بأنني قادرة على فقدان نفسي في وجودك

في لحظة الخضوع الحقيقية الجارفة.

أخبرني بأنني أستطيع البقاء مكسورة للأبد

فيك

ولك

ومعك.

أخبرني بأنني أستطيع البقاء هنا للأبد

بعيدة، وهنا في آن واحد.

ألم يقُل الرسول صلى الله عليه وسلم: " موتوا قبل أن تموتوا "؟

للوهلة الأولى، ظننت أنها مجردة تذكرة

تذكرنا بلقائنا بك.

إلا أنني فكرت كم أتمنى أن أموت قبل موتي:

أن تكون روحي خارج هذا العالم على الرغم من أن الجسد لا بد أن يبقى.

أن يكون قلبي متحررًا من قيود هذه الدنيا، على الرغم من أن الأقدام لا بد أن تسير في طرقاتها.

أن أمتلك نفسا في راحة تامة، ورضى كامل عن ربها، على الرغم من بقاء القشرة المتهالكة.

أن تكون الروح هناك، من قبل أن تكون هناك.

روح منفصلة.

نفس مطمئنة بكل ما تحمله الكلمة من معنى

أوكما قال الشيخ الكبير - رحمه الله - .. " من لا يدخل في جنة الدنيا، لن يدخل جنة الآخرة ".

أنقذني

لا أملك شيئًا سوى كرمك ليكون غاية أملي، لا شيء. لأني أقف ببابك حاملة شظايا حطام .. ومع ذلك تفتح لي. أنقذني من هذه العاصفة، فأنا الأضعف من بين جميع عبيدك، وأنا ضائعة، أبحث في وسط الغابة لأجد طريقي. ولكن الأشجار جميعها تبدو متشابهة، وكلّ طريق يعيدني إلى البداية. لا يستطيع أحدٌ العثور على طريق الخروج من هذه الغابة، إلا من هديت. أنقذني إنني حقًا، حقًا أضعف من أن أُنقذ نفسي.

قلبي كتاب مفتوح

قلبي كتاب مفتوح

تمزق منفتحا بقصتي

أخبرهم بأنك تعلمت الدرس

وستتعلمه في كل مرة

تطلب الكمال فيما لاكمال له

تطلب الأمان في بيت القش

وعندما تأتي العاصفة

ستكون أعزلّ ووحيدًا

مكشوفًا

أنفقت سنين تبتلع ..

مجرد هواء

ثم تتساءل لماذا أصبحت فارغًا

أخبروك بقصص

.. وأنت صدقتهم

وانتظرت جنية الأسنان

لتجلب لك الفكة

وعلى الرغم من ذلك ما زلت مستعدا للتنازل عن أي شيء

لجعل القصة حقيقة

دعها تذهب هناك قصة أفضل

وهي ليست قصة

إنها حقيقة

البطل فيها لا يموت أبدا

لا ينزف ولا يبكي

اعثر على النسخة الحقيقية

احفظها

دونها في قلبك

وبعدها

أعطِها للعالم كي يقرأها

قلبك كتاب مفتوح

الطعنة

لا تحزن للطعنة

فالطعنة قد جاءت لتطلق سراحك

من هذه السلاسل التي تقيدك إلى الأرض

وتشدّك إلى ظِلال البشر

سراب الماء لن يروي عطشك.

ولكنه جميل في أعين العطشى

أنا أخشى. ألا أعرف دنيا أخرى

مختلفة. مختلفة جدًا

إذا أطلقتُ يدي، فهل سترفعني؟

فوق الحزن، والحاجة والفقدان

فوق كل ما عرفت من أشياء

ارفعني، أطلق سراحي من هذه الأرض

مثل اللقاح، يمرضك كي يجعلك أقوى

الطعنة وقتية. والحرية أبدية

مشكاة

عظامي تريد أن تذوب

عضلاتي تريد الاستسلام

جسدي يريد التوقف

أمشي

أصارع

أقاتل

من أجل الهواء

من أجل الحياة

لوّن عقلي صورة لي

لكنها الآن ما عادت إلا بالأسود والأبيض

الأشجار منحنية، متعبة، منتهية

وكذلك، قلبي

ولكن أفكاري ما زالت تتكلم

أمشي

أصارع

أقاتل

من أجل الهواء

من أجل الحياة

صورة في غاية الوضوح، كيف لك أن تمحوَها؟

حقيقية فعلًا؟

أخبرني كيف لي أن أمحو نفسي منها

وأريح خطواتي المتعبة

أنا أنظر

أنا أتعثر

لا أخطو

الآن أتلعثم

لا أتكلم

هنالك ألم في صدري

ولد من صمت، وغمم، وقلق

من هنالك غيري ليطالب به؟

من غيري يمنحه اسمًا؟

أعتذر أسفًا لفتوري

وتهاوني عند الفجر

أدور الآن في الغابات

لعلي أعثر على مشكاتي

هل أتاني الإلهام؟

صوت من هذا الذي أسمعه؟

صوت حاد ويصم

من غيري يعرف اسمي؟

فبرحمته

يمكن للقلب أن يتكلم

بينما العقل والجسم خَدِران

متثاقلان

أرجوك تعال

ولو حتى لتهدئة أفكاري

ما زلت أجوب الغابات

بأجنحة

ما زلت أبحث عن مشكاتي

لم أعد

أمشي

أصارع

أقاتل

ظفرت بالهواء

ظفرت بحياتي

واصل السير

في كل يوم يقترب لقاؤنا.

أشعر كما لو كنت أسير في هذا الدرب لألف سنة

متوجهة إليك ..

ولكني ما زلت بعيدة.

قريبة جدًا، ولكني ما زلت بعيدة جدًا

ولكني أواصل سيري

رغم الدموع

رغم الريح

رغم رُكبي المسلوخة وعظامي المكسورة

رغم الكدمات وآثار الجروح التي جعلت هذا القلب ما هو عليه اليوم

أواصل سيري ..

متوجهة إليك.

هنالك اتجاه واحد

اتجاه واحد

متوجهة إليك

منك، وإليك

لا أملك شيئًا آخر

لا شيء

هذا هو فقري

أواصل سيري

لأن وراء كل غروب هناك شروق

ووراء كل عاصفة هناك مأمن،

ووراء كل سقوط هناك نهوض،

ووراء كل دمعة هناك تنقية للعيون.

وفي كل موضع للطعنات، هناك شفاء،

وخلق جلد أقوى مما كان.

أواصل سيري

لأني والله لا أملك إلا رحمتك.

لا أملك إلا وعدك

كلماتك

وعدك: ﴿يا أَيُّهَا الإِنسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدحًا فَمُلاقيهِ﴾ (الانشقاق: 6).